محمد مصطفى بازامه

عيسى يوسف اللويشي

صفحات من تاريخ فزان

الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE

محمد مصطفى بازامه

صفحات من تاريخ فزان

الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE

محمد مصطفى بازامه

صفحات من تاريخ فزان

الطبعة الأولى : **2018** م

رقم الإيداع المحلي: **2018/343**

رقم الإيداع الدولي: **9789959-25-931-8**

القياس: **17-24** عدد الصفحات: **188** صفحة

دار الكتب الوطنية بنغازي - ليبيا

هاتف: **7165022.21821+** - بريد مصور **4843580-21821+**

ص.ب: **75454** - طرابلس **Email: almosgb@yahoo.com**

المقدمـة

تـاريخ فـزان جـد عريـق ، شـهدت بـذلك الأسـطورة اليونانيـة ، والروايـة الفرعونيـة قـديماً وقبـل أن تثبـت عراقتـه وتؤكـدها تلـك النقوش والرسومات البدائية التي عَثر عليها وسط الصحراء الكبرى ، رائدها الباحث في العصر الحديث .

لقـد دهـش ذلـك اليونـاني وذهـل حـين بـرز لـه مـن وراء رمـال الصحراء وفيافيها الشاسعة القاحلة الجرداء التي خلت من الوحش والطير والنبات ، إنسان مثله لا يعرف له أصل ، فقاده خياله الخصب ومذهب درج عليه في تفسير الظواهر وبدايات نشأة الخلق والأشياء إلي تصـور أن للقارامـانتي جـدّاً أول سمّـاه اليونـاني قارامـاس GARAMAS أنجبتـه جيـا GEA (وهـي الأرض) مـن أورانـوس URANO (وهـو السمـاء) بشرا سويا قبل أن تنجب المشوهين من أشباه الرجال وهم من يطلقون عليهم CENTAURIS ، فكان قاراماس بهذا أول الناس .

ولم يـرَ المصري القـديم لـلأرض مـن الغـرب حـدّاً سـوى السمـاء ، فقال عن موطن ذلك الإنسان البعيد الذي وفد عليه من الغرب وخلف الصحراء بأنه واقع عند الركن الغربي للسماء (رواية حرخوف) .

روايتـان قـديمتان جـداً تشـهدان بـأن إنسـان الصحراء وابـن فـزان كـان مـن أقـدم القـدماء وجـوداً في التـاريخ . وقـد جـاءت نقـوش ذلـك الإنسـان العريـق ورسـوماته لتقـدم لنـا الـدليل المادي الـدامغ علـى عراقـة الفزاني في التاريخ .

تاريخ بهذا القدم وهذه العراقة ، بداياته مع نشأة الحضارة ومداه التاريخ الإنساني بطوله منذ عصر ما قبل الأسرات المصرية وإلى الآن . ماضٍ كهذا لا يسهل بالطبع جمعه وتدوينه بحيث توصل حلقاته وتتصل في تسلسلها بحال ، لاسيما مع إهمال له طال أمده ، إلاّ بالكثير من الجهد ومواصلة دؤوب للبحث مع الصبر والعناء والدراسة ، وهذا ـ مع الأسف الشديد ـ لم يُبذل فيه غير النزر اليسير ، ومن قِبل أناس غرباء عن ليبيا وعن فزان ، كان همهم الأول (حتى أواسط القرن العشرين على الأقل) هو البحث عن شواهد للتاريخ الروماني على ضفاف الصحراء وأطرافها .

لِمَا تقدّم ، آثرت أن أقدِّم إليك صفحات من تاريخ فزان ، درست مادتها قدر جهدي ومصادري وإمكانياتي ، وبالطبع فهي ليست بتاريخ فزان وإنما لبنات توضع في أماكنها من صرحه التاريخي الذي أقر وأعترف بعجزي عن أن أكون له المهندس البنّاء ، وليقيني بأنه لن يُكتب كما ينبغي إلاّ بتظافر الجهود وتعدد البحوث والدراسات فيه ، وهذا لا يكفي فيه جهد إنسان مهما بذل من طاقة وجهد وزمن .

المؤلف

بنغازي 2000/1/1م

فَزَّان

الاسم في التاريخ

لأسماء الأماكن والمدن والمناطق والأقاليم تاريخ حديث أو قديم يمكن تتبعه أو بعضه على الأقل . وقد سبق لنا وأن قدّمنا وفيما يتعلق بليبيا بعضاً من تواريخ هذه التسميات ، وكان أولها بحثاً بعنوان :"ليبيا ، هذا الاسم في جذوره التاريخية" منذ أوائل الستينات ؛ وتعرّضنا لاسمي قورينة وبرقة ، وأسماء مناطق أخرى قديمة اندثر بعضها من ذاكرة الشعب وامّحى أثرها من مثل إيراسا وأزيريس ، وذلك في بحث بعنوان :" قورينة وبرقة ، نشأة المدينتين في التاريخ " وقد نُشر هو الآخر في السبعينات ؛ وقدّمت بحثاً ثالثاً بعنوان :" مدينة طرابلس وأسماؤها في التاريخ "، وقد نُشر هو الآخر في الثمانينات ، ولنا بحث في الإيطالية (لا يزال مخطوطاً) بحثنا فيه ما نحتمل أنه الاسم الأسبق لطرابلس الإقليم في التاريخ وهو "تَاسُرْت" (من أصل كنعاني - بربري)، ونواصل عملنا هنا وفي ذات الاتجاه فنبحث في "فزان" في التاريخ .

نحن اليوم لا نفرق في التسميات ما بين الجغرافي الأصل منها والإتنولوجي ، أو بعبارة أخرى : ما بين الإقليم وساكنيه ، فالفزانيون - وعامياً الفزازنة كالبراوقة - هم سكان الجنوب الغربي من ليبيا أي "فزان". وفزان هو الإقليم الذي يستوطنه من نسميهم بالفزانيين أو

الفزازنة ، ولا نسائل أنفسنا ونحن نسميه أو ننسبه أو ننسب إليه عن أي الأمرين أقرب إلى الواقع حين نذهب بالبحث بعيداً ، ونغرق في التاريخ .

أمران لابدّ من إحداث فصل بينهما حين نتعمد التحليل والتعليل ، أحدهما "أتنوغرافي" والآخر "جغرافي". وهذا الأخير هو الأقرب إلى فهمنا المعاصر الذي تبلورت فيه القوميات ، وتحددت ذاتيات الأقاليم . ولكن فزان في الماضي ، وكما نستشف من مصادر التاريخ ، كانوا الجنس الذي يُنسب الإقليم له . وبتعبير آخر : كان اسم فزان "أتنوغرافياً" خالصاً ، وهو اليوم "جغرافي" محدد الدلالة ، وبالتالي فإن الفزانيين اليوم هم سكان إقليم فزان وفي المجموع ، سواء أكانوا في أصلهم العرقي البعيد العريق من قدماء سكانه أو من العرب الذين استوطنوه بعد الفتح وعقب هجرة بني هلال وسليم أو من التوارق والتبو والسودان الذين لهم أصولهم وجذورهم خارجه أيضاً ؛ أما في السابق ، وحينما كانت الانتماءات محض عرقية[1]، فقد كان الفزانيون هم أقدم أهل الإقليم المعروفين لدى الرومان[2]، وكذلك هم في النصوص الأولى (زمناً) من مصادرنا العربية[3]. ومعنى هذا أنهم جنس من أجناس أخرى ذكروها كسكان لنفس الإقليم ، وهم ليسوا

(1) - بحثت هذا مفصلاً في عمل آخر لي بعنوان :" أثر الدين والقومية في تاريخ الأمة الإسلامية"، وقد أوضحت فيه أن المفهوم الجغرافي للقومية محض غربي أوروبي وأن المفهوم الأتنولوجي محض عربي - إسلامي.

(2) - ويتضح هذا في نص بلينيوس (الخامس : 35) الذي سيرد في موضعه المناسب من البحث، في نصه اللاتيني ومعرباً.

(3) - نص اليعقوبي في البلدان ، وسيرد فيما بعد .

بالفزانيين ، بل أعادوا كلا منها إلى أصله العرقي الذي ينتهي بانتمائه إليه .

وسنرى كيف أنه لابدّ لنا في هذا البحث من ضرورة إبراز هذه التفرقة في تحديد التسمية من حيث ركيزتها الأتنولوجية أو الجغرافية ، لا حاضراً بالطبع ، حتى يمكننا أن نتتبع هذا الاسم : "فزان"، وإدراك مراحل فهم أناس الماضي لمدلوله عبر التاريخ .

• اسم فزان والعرب :

إننا لا نعرف لهذا الإقليم في التاريخ تسمية ذات مدلول جغرافي، وغير أتنولوجي ، تسبق تسميته بفزان . وهذه التسمية ، وبمدلولها الجغرافي نسبياً حديثة ، بمعنى أنها لم تكن شائعة قديماً ، في مصادرنا المدوّنة على الأقل ، إلاّ أنها ومع ذلك كانت ترد فيها أو في بعضها للدلالة على سكانه أو على الإقليم ، وإن في تداخل وبعض غموض ما بين المفهومين .

ومع هذا فمن الثابت تاريخياً أن تسمية الإقليم باسم فزان غير عربية الأصل ، وبالتالي ، فلا علاقة لها البتة بأي جذر عربي صرف ، بل إننا ومن مراجعتنا لمصادرنا التاريخية العربية الأقدم عهداً (الأقرب إلى زمن الفتح) نستطيع الجزم بأن العرب حين دخلوا هذا الإقليم لأول مرة فاتحين، لم يعرفوه بهذا الاسم "فزان"، فابن عبد الحكم كالبلاذري في الفتوح والبلدان تحدّثا كلاهما عن عقبة بن نافع الفهري وفتحه زويلة (عاصمة فزان) إلاّ أنهما لم يذكرا فزان

كإقليم ، وإنما اكتفيا بالقول : "... وصار ما بين زويلة وبرقة سلماً للمسلمين ..."، هكذا وبهذا عبّرا عمّا نعرف اليوم أنه "فزان". بل إن أغلب الظن أن المراد بزويلة عندهما وغيرهما ليس الواحة والبلد وإنما سائر الإقليم الذي تُعد هي حاضرته ، فهذا ما سار عليه العرب وغير العرب في تسمية بعض الأقاليم بأسماء عواصمها (برقة - طرابلس - فاس - ... إلخ). وبل إننا إذا تدبرنا رواية اليعقوبي في البلدان نجد أن زويلة عنده هي غير فزان التي هي عنده :" ... وجنس يُعرف بفزان : أخلاط من الناس لهم رئيس يُطاع فيهم ، وبلد واسع ، ومدينة عظيمة"(1).

مما تقدّم يتضح لنا أن العرب في أول عهد الفتوح لم يطلقوا على هذا الإقليم اسم فزان ، وأنهم في القرن الثالث الهجري كانوا

(1) - لم يسم هذه المدينة التي وصفها بأنها "عظيمة"، ولا البلد الذي قال عنه أنه "واسع"، وهذا يعني أنه لا يعطي فزان السعة التي نضفيها على ذات الإقليم اليوم ، فليست زويلة بداخلة فيه ، وهي عنده كما عند غيره الأوسع والأهم ، ولهذا فنحن أميل إلى اعتبار "البلد الواسع" عند اليعقوبي هو ذاته وادي الآجال أو هو "وادي الشاطئ"، و"المدينة العظيمة" عنده هي جرمة وقاراما القديمة ، ذلك أن ياقوت في معجمه قد ذكرها على أنها :" قصبة بناحية فزان في جنوبي إفريقية ، لها ذكر في الفتوح ، افتتحها عقبة بن عامر [خطأ صوابه نافع] وأسر أهلها". أما قوله بأنهم أخلاط من الناس بعد قوله بأنهم جنس فلعله كان يريد أنهم متشابهون سحنات متعددون انتماءات وربما لغات أو لهجات (الخرمان - التوارق - التبو - ...إلخ)، وأخيراً فإن إشارته إلى "رئيس يُطاع فيهم" نفهم منها أنهم وفي عهده على الأقل لم يكونوا لعمال الخليفة العباسي في البلاد (الأغالبة)، ولعلهم كانوا آنذاك أباضيين أو هم على الأقل مستقلون ببلدهم عن طرابلس ، ونحن إلى أول هذين أميل .

يقصرون اسم فزان على بعض الإقليم دون سائره (ربما منطقتي الشاطئ والآجال منه)، أما أنه غير عربي الجذر والاشتقاق فإن تأكيده هو وروده في مصادر لاتينية يعود أولها تاريخاً إلى القرن الأول للميلاد . وبالطبع فإن من كانوا سكان الشاطئ والآجال ، أو أغلبهم على الأصح ، ليسوا من القبائل العربية التي لم تدخل الشمال الإفريقي كجماعات ذات أعداد وفيرة إلاّ في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، وفقط بعد هذا ، وكنتيجة لتوطن بني هلال وبني سليم أصبحت غالبية سكان الشاطئ والوادي الشرقي من الآجال من العرب (مقارحة - حساونة - أولاد بوسيف - ...إلخ).

وقد يكون أمراً لا معنى له ولا مبرر ما نلحظه من أن الاسم ينتهي بألف ونون ، وهو ما نجده يتكرر في تسميات المواقع والمدن والأقاليم التي بشرق ديار الإسلام من مثل : إيران ، كرمان ، خرسان ، طهران ، عبدان ، ... إلخ[1]. وقد يرد تأثير المشارقة في التعريب ؛ ذلك أن اليعقوبي نفسه في البلدان ، وعند حديثه عن زويلة قد ذكر : " ... وبها [أي زويلة] أخلاط من أهل خراسان ، ومن البصرة ، والكوفة"[2]. وهؤلاء بالطبع مشارقة جذبهم المال وحركة التجارة المزدهرة

(1) - وليس فزان - للحقيقة - هو الاسم الوحيد الذي ينتهي بألف ونون ، فهناك : وهران وتلمسان وزغوان (جبل)، وجميعها إلى الغرب من فزان ، وبالتالي فقد لا يكون لما لاحظناه أية أهمية ، ولكن قد تكون هذه وغيرها مما آخره ألف ونون من التسميات التي تأثرت بتيار المشارقة في التعريب ، كما تأثر الناس بتيار المغاربة في الألقاب : سعدون ، حفصون ، خلدون ، غلبون ، ... إلخ.

(2) - اليعقوبي ، البلدان ، ص345.

فاستوطنوا قلب الصحراء ، وقد يكون بعض هؤلاء هم من نشر الاسم التاريخي بين العرب في المشرق للإقليم على الرغم من أنه لا يُطلق على مدينة بالذات .

• اسم فزان والرومان :

لم يكن العرب إذن هم من سمّى فزان بهذا الاسم ، فقد كان الإقليم معروفاً به قبل الفتح بقرون ، وقد ذكره بذات التسمية PHAZANIA عدد من أشهر المؤرخين والجغرافيين الرومان أسبقهم جملة هو بلينيوس في "التاريخ الطبيعي" وكانت روايته في نصها وترجمتها هي كما يلي :

(35) وأثناء السير تصادفنا "فزانيا" الواقعة على طريق الصحراء الأفريقية التي سبق ذكرها فوق سرت الصغرى : وهناك أخضعنا الأناس الفزانيين ومدن اليلى وكلالا وأيضاً كيداموس قادمين إليها من منطقة صبراته[1] .	(35) Intervenit ad solitudines Africae super Minoren Syrtim Dictas Versa Phazania, Ubi Gentum Phazaniorum Urbesque Alelen et Cillibam Subegimus, item Cidamum E Regione Sabratae.

ولا يعرف المؤرخون الأوروبيون نصّاً يسبق هذا الذي يعاد تاريخاً إلى القرن الأول للميلاد ، ومن بعده كان ناقلاً عنه ومرتكزاً عليه ، وقد

(1)- Gaio Plinio Secondo : Storia Naturale , Lib. V, 35

أخطأ البعض منهم في رسمها فجاءت عنده Fhasania بالسين أو بالصاد "فَسَّان" أو "فَصَّان" بدلاً من "فزان".

وبلينيوس في روايته ووفق المفهوم الأوروبي يستخدم التسمية بمدلولها الجغرافي لا الإتنوغرافي، فهي فزان وسكانها منسوبون إليها "Gentum Phazaniorum". وهو أيضاً وكاليعقوبي يحدد فزان بجانب من الإقليم ولا يعمم؛ إذ إنه وفيما يبدو يعتبرها غير أرض القارامنت التي يضعها إلى الجنوب من "فزانيا" كما في الآتي من روايته:

(36) وإلى الوراء منها [فزانيا] توجد مناطق صحراوية ثم ثيلجي مدينة القارامنت"[1].	(36) Ultra Eum Deserta, Mox Thelge Oppidum Garamantum ecc.

وبتأمل ما ذكر هنا وفيما سبق وربطه بخارطة فزان الجغرافية كما نعرفها اليوم يمكننا أن نعتبر أن ما أُطلق عليه اسم "فزانيا" هو فقط وادي الشاطئ، والصحراء هي رملة زلاف ثم مدينة القارامنت ثيلجي (وبلادهم) هي وادي الآجال.

وبالرجوع إلى ما سبق قوله حول رواية اليعقوبي يمكننا وضع تصور لما كان القدماء من الرومان والعرب يعتبرونه "فزان" بأنه الجانب الشمالي الغربي من الإقليم، بينما لا يمتدون بها إلى الشمال الشرقي والجنوب من الإقليم، والذي يسكنه "القارامنت" في المصادر الرومانية، ويقول عنهم اليعقوبي: "... وبين زويلة ومدينة كوار، وما يلي زويلة إلى طريق أوجلة وإجدابية قوم يقال لهم "لمطة" أشبه شيء

---

(1) - بلينيوس، المصدر السابق، الكتاب الخامس، 36 - 37.

بالبربر ، وهم أصحاب الدرق اللمطية البيض"[1]. وهذا التحديد لمنازلهم ومجالاتهم ، ونعته لهم بأنهم "أشبه بالبربر" (ويعني بالطبع بربر الشمال ذوي البشرة الأقل سمرة) يدفع بنا إلى احتمال أنهم التوارق ، ويرجح هذا الاحتمال تحديدات غير اليعقوبي لهم ووصفهم لحياتهم وما إلى ذلك[2].

ولسنا هنا بالمُغْفِلين لعامل الزمن والتاريخ وما حدث من تخلخل وتدافع في توزيع مواطن السكان عبره ، إلاّ أننا ومع هذا لا نملك إلاّ أن نلاحظ أن ما خططه اليعقوبي في القرن الثالث الهجري لا يزال إلى يومنا يرسم الحد الشرقي لمواطن التوارق ، بينما إلى الشرق منه مواطن التبو ، وهم غير هؤلاء .

• اسم فزان واليونان :

واليونان الذين سبقوا الرومان إلى ليبيا واستوطنوها منذ القرن السابع قبل الميلاد على الأقل قصر مقامهم كما قصرت معلوماتهم وثقافتهم ولغتهم على برقة ، ولم يجاوزوا أبداً قعر خليج سرت ، ولا توغلوا بنفوذهم بدواخل البلاد ، وبالتالي فإن معلوماتهم الجغرافية كانت تستند على السماع ومعظمها يستمد معلوماته عمّا ذكره عن الليبيين مؤرخهم هيرودت (القرن الخامس قبل الميلاد)،

---

(1) - اليعقوبي ، البلدان ، ص345.

(2) - راجع على سبيل المثال لا الحصر ما أورده البكري وصاحب الاستبصار والإدريسي عن "لمطة" وعن "نَوْلْ لَمْطَة" فيما جاء به الحميري في الروض المعطار عن هؤلاء .

وهـذا لم يتحـدث في تاريخـه إلاّ عـن القارامنـت وعـن التروقلوديـت TROGLODITI (ومعناها سكان الكهوف) فيما نحدده نحن اليوم بالجنوب الليبي (فزان والكفرة)، ولم يأتِ في سائر ما كُتِب عن أي ذكر لفزان كاسم .

ولم يقنع بعض الباحثين الأوروبيين بجهل هيرودت وقصور معلوماته ، فتعسف وعنت وأجهد الفكر والقلم معاً ليبرز علم هيرودت بفزان وشعب فزان ، فجاء بتحوير لنص هيرودت فحول به من قارامنت إلى قامفاصنت ومن هذه إلى فزان أو الفزانيين[1] . ولا يعنينا هنا تقييم هذه الفرضية التي ترى في اسم "قارامنت Γαραμαντες " الوارد في نص تاريخ هيرودت المعروف خطأ قديماً متوارثاً يجب تصحيحه إلى Γαμζαδαντες (قامفاصانتيس)، إلاّ من حيث معرفة أو جهل اليونان باسم فزان[2] . وهذا بالطبع ليس بذي أهمية فيما نبحث هنا فيه ، إلاّ من حيث عراقة اسم فزان في التاريخ على عهد الرومان واليونان . وفي هذا لا نعتقد أن المصادر اليونانية قبل أو بعد هيرودت هي ما يقدم كلمة الفصل في هذا الموضوع بالذات ، بل إننا نعتقد جازمين بأن الفينيقية (لغة الكنعانيين) هي ما يجب علينا أن نبحث فيها عن أصل هذه التسمية بالذات ، فهي الأصل للبونيقية الحديثة التي كانت لغة الإقليم السائدة حينما طرأ عليه الرومان .

---

(1) - Oric Bates : The Eastern Libyams, London, Macmillan, 1914, p.53.

(2) - يؤيد نظرية أوريك بيتس هذه العالم اللغوي في البربريات فرانشيسكو بيجونيوت ، وله في هذا رأيه اللغوي الصرف في قاراما وجذرها اللغوي واشتقاقاته ومدلولاته مما لا علاقة لنا به في هذا البحث بالذات.

• اسم فزان والكنعانيون :

والكنعانيون وهم ذاتهم الفينيقيون[1]، أقوام انتهت إلى سكنى الشمال الأفريقي في حوالي القرن العاشر قبل الميلاد[2]. والكنعانيون وكما هو معروف قوم عرب (من العرب البائدة)، ولغتهم بالتالي عربية الأصل ، فإن لم يسلّم البعض بهذا ، فهي لغة سامية الأصل على التأكيد ، ومن هنا فهي مشتركة الجذور مع اللغة العربية وغيرها من بقية العائلة السامية في العديد من الأصول أو الجذور .

وقد حاولنا التوصل من خلال معاجم اللغة العربية إلى ما يمكن أن يكون أصلاً اشتقّ منه اسم فزان في الكنعانية ـ أو إن شئنا

---

(1) - "الفينيقيون "Fenici هو التحديث لاسم Phoenicum في اللاتينية ، وهو ذاته البونيقيون Punici في الحديثة . والبونيقية الحديثة هي اللغة الفينيقية التي تأثرت باللغة البربرية في الشمال الأفريقي ، أو هي لغة "قرت حداشت"، وهي ذاتها قرطاجنة . والفينيقيون في التاريخ ليسوا إلاّ الكنعانيين الذين عرفوا في الأدب والتاريخ العربي . وهنا نؤكد حقيقة لا جدال فيها هو أن الكنعاني وسواء في الجزيرة العربية أم في الشام أم في الشمال الأفريقي لم يعرف نفسه باسم الفينيقي أبداً ، كما أن العربي ، وطوال التاريخ ، لم يعرف نفسه باسم الساراقيني أو السراشينيني وإنما تسميته بالفينيقي كتسمية العربي باسم السراشيني من مبتكرات اليونان واللاتين ، وبالتالي فإن تسميتنا هنا للفينيقي بالكنعاني إنما هي حرص منا على العودة بالتسميات إلى أصولها أو هي تحرر ثقافي من ربقة التأثير الثقافي الغربي علينا في ثقافتنا العربية وحسب.

(2) - ولنا في هذا الموضوع خاصة رأي مغاير لما عليه سائر مرويات الأوروبيين أوردناه في بحث لنا (في الإيطالية) عن أصل البربر في ليبيا وسائر الشمال الأفريقي بنيناه على رواية ابن عبد الحكم في أصل البربر (مخطوط)، وقد قدمناه في تفصيل أكثر في العربية ضمن كتاب "سكان ليبيا في التاريخ " الجزء الأول ، نشر دار الحوار سنة 1994.

الفينيقية ـ فوقفنا عند فَزَّ وعند فَوَّزَ، ولعل فزان من فوز أقرب، فمن هذا نعثر على مفازة وهي الأرض المهلكة والصحراء، وتلك طبيعة فزان الغالبة على الأقل، ونحن لا نقول بأن هذه طريق البحث الأنسب إلاَّ أننا نرى فيها واحدة من طرق البحث التي قد تؤدي ـ إذا سلكها عالم بأصول اللغات ـ إلى شيء ما قد يُقبل من الجميع .

•اسم فزان في اللهجة الوطنية :

ولكن، وإلى جانب هذا كله، فإن لأهل ذات البلد لهجة ولغة جذورها ضاربة متأصلة في أعماق الزمن والتاريخ، وقد تكون حافظة محتفظة بجذور بعض تليه المفردات التي ليست بأي من اللغات الطارئة عليهم والمؤثرة بما ترسب منها في لهجتهم أو لهجاتهم، وبالتالي فإن لهذا الاسم العريق بينهم معنى قد يكون لا يزال حيّاً فيها بشكل أو بآخر من الاشتقاق أو التوليد .

وقد تصدّى للبحث في هذا عالم اللغات الإيطالي بيجونيوت في البربرية وانتهى فيما اعتقد إلى أصل لها في هذه اللغة أتى عليه في لمحة مقتضبة من بحثه الذي شارك به عمل اللجنة العلمية التي قامت فيما بين سنتي 1932 و1935 بدراسة مسح وبحوث متخصصة في مجالات عدة من مظاهر المجتمع والحياة في فزان بتكليف من الجمعية الجغرافية الملكية (الإيطالية)، ونشرت أعمالها سنة 1937م باسم الصحراء الإيطالية (الأول) فزان وواحة غات .

قال في هذا الموضوع : إن اسم فزان الذي ورد عند بليني على

شكل PHASANIA أو PHAZATIA وأتنولوجياً PHAZANII ،وحتى عند هيرودت إذا ما صحح اسم GARAMANTGS الواردة في الفقرة 174 من الكتاب الرابع بناءً على استنتاجات مقبولة لأوريك بيتس في "الليبيين الشرقيين" إلى GAM – PHASAN – TES من الجائز أن يكون ذا دلالة جغرافية بمعنى المدرجات ، ذلك أن في لغة التوارق نجد كلمة تافسانا TAFASSANA وأيضاً TAFASSANA تعني درجة أو مدرج ، فإذا ما أسقطت "تا" الدالة في البربرية على التأنيث وهو ما حدث في كثير من الحالات التي أصبحت أعلاماً جغرافية من مثل تقابس TAGAPES وتمزدة TAMESDA وطبرقه TABARKA والتي هي قابس ومزدة وبرقة.

وبهذا نجد فرانشسكو بجويوت يعيده إلى جذر بربري ويعطيه معنى المدرج (أي المرتفع)، وهذا فيما نراه جائز نظرياً على الأقل ، وإن كنا نمسك عن التسليم به على الرغم من أننا لا نجد مأخذاً لنا عليه .

وبالطبع فما من غرابة في أن يعاد أصل تسمية الإقليم إلى لغة وطنية ، وهو قد جاءنا عن طريق اللاتينية وكاتب روماني ، فقد جاءتنا تسمية أخرى "ليبيا" عن طريق اليونانية وكاتب يوناني وهي أيضاً وطنية الأصل .

سكان فزان
قبل الإســلام

• أسلاف القارامنت :

الحديث عن أهل فزان في الزمن القديم لا يبدأ بالقارامنت الذين حدثنا عنهم لأول مرة شيخ التاريخ هيرودت في تاريخه ، فالإقليم كان قبلهم مأهولاً بأناس غيرهم ، سبقوهم أو كانوا لهم أسلافاً بقرون وقرون ، وبالتالي فإن حديثنا عن هؤلاء السكان سيكون مبتوراً ما لم نذهب بالبحث إلى من وراء القارامنت من السكان ، وهذا ما سنفعله الآن .

أن يكون الإقليم - الذي عُرِف فيما بعد بفزان - هو الموطن الأول لشعب عرفناه في آثار مصر الفرعونية باسم التمحو أو التماحو أو التميح[1] . فهي نظرية لنا قلنا بها واحتضناها وسلمنا بها في أكثر من عمل سابق لنا[2]، ولم نجد ما يقنعنا بالتخلي عنها وإهمالها ، بل وعلى

---

(1) - اللغة المصرية القديمة لغة حامية الأصل ، وبالتالي فهي كالسامية لا ترسم غير الأحرف ، بينما لا تظهر الحركات ، الأمر الذي أوجد تبايناً بين العلماء المختصين في تحريك الأحرف بالرفع أو النصب أو الخفض ، وهكذا فإن TMH فيها قد قُرِئت تمحو وتماحو وتيمحي ...إلخ ، بحسب الاجتهاد والتغليب لحال على حال.

(2) - راجع : ليبيا في عصر ما قبل التاريخ ، الجامعة الليبية ، 1973م، ص106 وما بعدها ؛ سكان ليبيا في التاريخ (عصور ما قبل الإسلام)، دار الحوار 1994م ، ص22 وما بعدها ؛ واحات الجنوب البرقي بين الأسطورة والتاريخ ، دار الحوار ، 1994م ، ص34 وما بعدها .

العكس ، ازددنا بها قناعةً ولها قبولاً.

هذه النظرية : أقمناها أصلاً على أكثر من شبهة وقرينة ودليل، ولا نرى هنا ضرورة لإعادة الحديث فيها وتفصيلاته ، لهذا نكتفي بالقول إن التمحو - وفي أغلب الظن - كانوا هم أقدم من عرف التاريخ من سكانه[1]، وإن هجرتهم للإقليم أو نزوحهم عنه كانت بسبب نضوب مياه تلك الأصقاع لتقلص نسب أمطارها وتحوّلها الكامل إلى صحراء قاحلة جرداء مع نهايات العصر المطير[2]، والذي يعاد تاريخياً إلى الخمسة آلاف سنة الأخيرة قبل ميلاد المسيح ، أما فترة هجرة التمحو خاصة فقد كانت بداياتها مع عهد الأسرة الخامسة من الأسر الفرعونية أو حوالي ذلك .

هؤلاء القوم الذين عرفوا في نصوص الآثار المصرية باسم التمحو أو التماحو ليسوا في سحناتهم لا بالزنج ولا بالمتزنجين[3]، فقد لونت بشرتهم بلون فاتح لا تخالطه سمرة ، وشعرهم مرسل أشقر ،

---

(1) - قلنا هنا بتغليب الظن ولم نقل باليقين لأمرين : الأول أن اعتبار أصلهم فزان ليس مؤكداً فهم في غير فزان كذلك ؛ والثاني : أن التمحو في مصر لهم ذات ملامح وصفات بعض أقوام فزان غير أن في التأكيد على أن هؤلاء هم من عثر عليهم في رسومات الصحراء مجازفة وجرأة لحاجتها إلى دليل آخر غير مجرد التشابه والاحتمال.

(2) - راجع في هذا ما كتبت عنه في :"تاريخ ليبيا في عصور ما قبل التاريخ"، السابق ، ص79 - 90.

(3) - تعرّض جوسيبي سرجي في كتابه :"أفريقيا أنثروبولوجية العنصر الحامي "، أخوة بوكا، تورينو، 1897م ، الذي قدّم فيه نظريته "جنس البحر المتوسط" الذي يأخذ بها الجميع الآن لبحث مسألة التزام الفنان المصري القديم بصدق التلوين لرسومه بحيث تطابق الواقع ، وردّها وشكّك فيها (ص273 وما بعدها)، والكتاب في اللغة الإيطالية.

وعيونهم زرقاء ، وأنف أقنى وجبهة عريضة عالية ولحية مدببة غير كثيفة الشعر . وهذا جنس استمر يسكن بلدان الشمال الإفريقي حتى عصرنا الحاضر ، ولهذا فإن عديداً من المؤرخين الأوروبيين حاولوا تعليل وجود هذا الجنس المعروفة سحناته بما تقدّم من طريق الربط ما بينه وسكان شمال غرب أوروبا فجاءوا بالعديد من الافتراضات والآراء التي يزخر بها الكثير من مؤلفات القرن الماضي وأوائل هذا القرن في الموضوع[1] . ولكن مكتشفات بعض الرواد والرحالة أظهرت أن لهذا الجنس وجوداً سابقاً وسط الصحراء الكبرى قد يسبق حتى عهد الزراعة والاستقرار في تاريخ الإنسان[2] .

هذا الجنس الطويل غير الممتلئ الجسم ، هو إذن جنس إفريقي أصيل ، حتى وإن لم تكن له ذات الملامح الزنجية أو المتزنجة ، وبالتالي فما بنا من حاجة إلى الإغراق في سرد تلك التأويلات والآراء التي جاء بها دارسو المسألة الغربيون من علماء القرن الماضي ، وهذا القرن لإثبات أو نفي هذا الانتماء الصريح .

ولم تبرز لنا رسوم ساكن الصحراء الكبرى القديم هذا الجنس "الليبي ـ الإفريقي" وحده فيما خلفه الأقدمون من لوحات على صخور

---

(1) ـ المستعمرون الفرنسيون وجاراهم الإيطاليون ضغطوا على هذا احتكاراً للون الأبيض على الأوروبي فقالوا بهجرة طرأت من الشمال إلى الجنوب عبر مضيق جبل طارق ، وعارض البعض المتعصب للأجناس اللاتينية فقال بالعكس ، أي بالهجرة من الجنوب في اتجاه الشمال ، وكلا الأمرين خطأ شنيع دافعه سياسي عنصري وحسب.

(2) ـ أصحاب الشعر الطويل والقامة الفارعة يعودون إلى عهد الرعاة والصيد فيما تبرزه الرسوم.

الجبال وعند ضفاف الأودية (الجافة اليوم)، وإنما عديد من الأجناس الأخرى الزنجية والمتزنجة ، وفي هؤلاء من هو قصير مكتنز ومن هو طويل نحيف ، ومن هو ربعة بين بين ، ومن هو عارٍ ومن هو مكتسٍ..إلخ. وهذا يعكس لنا تعايشاً في أخلاط كما يسطر الدليل على التعاقب ما بين الأجناس ، وهذا معناه أن هناك أكثر من جنس سكن فزان قبل القارامنت .

ولكن ، وباستثناء التمحو أو التماحو الذين حفظت لنا المصرية القديمة اسمهم الذي عرفناهم به ونتفاً شوارد من أخبارهم في مصر وبين المصريين ، فإن معلوماتنا عن بقية الأجناس التي سبقت هؤلاء أو عايشتهم أو خلفتهم في سكنى الإقليم قاصرة على معطيات رسوم الصحراء وهي خرساء وغير مصحوبة بأي نص مدوّن معروفة لغته على أية حال .

وإذا كانت القرون المتتالية قد أسدلت على ذلك الماضي ستارها الكثيف من النسيان فجهلنا الأسماء والأنباء ، فإن التحول الطارئ على سطح الصحراء لتوقف هطول الأمطار ، ونضوب المياه وطغيان الجفاف حتى أفقد الفيافي النبات والحيوان ؛ فأدى هذا وسافي الرمال إلى تغيير المعالم وتلاشي العمران فلم تعد لنا من قدرة على التعرف على الموطن التي عمرت بذلك الإنسان ، ولم تعد لنا غير الصدفة وحدها تقودنا إلى هذا المكان أو ذاك .

• القارامنت :

كان علينا أن نقفز تاريخياً لأكثر من ألفي عام بعد نص الرحالة المصري الرائد "حرخوف" الذي بلغ بلاد تمحو ، وشارك في الحرب ضدهم قبل أن نعثر على نص مدوّن آخر عن سكان ما عُرِف تالياً بفزان ، وكان في هذه المرة يونانياً وصاحبه هو شيخ التاريخ هيرودت الذي جاء في كتابه بفقرتين تحدث فيها عن قومين سماهما القارامنت ، وحدّد سكناهما ، واحدة جنوب الأخرى من فزان .

• حول الاسم :

كما أن التحنو ، والتمحو أو التماحو ، والليبو ، والمشواش ، وغيرها إنما هي تسميات أقوام ليبية جاءتنا عن المصريين واللغة المصرية ، فإن الأدرماخيدي والناسامونة والقارامنت وغيرها هي الأخرى تسميات لأقوام من ليبيا جاءتنا عن اليونان واللغة اليونانية . ولا علم لنا في الحالين بحال ما إذا كانت هذه هي ذات الأسماء التي عُرف بها كل من تلك الأقوام نفسه أم أنها كانت لبعض هؤلاء أو كل هؤلاء تسميات أخرى غيرها عرفوا بها أنفسهم ، وحملوها وكانوا يتسمون بها ، غير أنها لم تصلنا لعدم تدوينها وفقدت مع الزمن .

وليس هذا بالتساؤل الذي نطرحه حذلقة وحسب ، فقد علمنا ومن التاريخ العام أن الفينيقي لم يعرف نفسه أبداً بهذا الاسم الذي أطلقه عليه وقومه اليونان والرومان ، أما هو وأما أهله جميعاً فقد كانوا يعرفون أنفسهم بأنهم الكنعانيون ، وأن اسم (السراسين

SARACENI) تسمية أطلقها المسيحيون في القرن الرابع للميلاد (سان جيرولمو) على العرب ، وتداولها الإفرنج في كتبهم للدلالة على العرب والعربي ، واستمروا في ذلك حتى أواسط القرن العشرين على الأقل ما زلنا نعثر عليها في بعض ما كانوا يكتبون ، ومع هذا ورغم طول الأمد ، فإن ما من عربي عرف بأن هذا الاسم له أو حتى إنه المعني به ، اللهم إلاّ بقراءته لكتب الإفرنج ، وبالتالي فقد تكون تسمية قوم من الليبيين باسم قارامنت من ابتكارات اليونان .

ولكن ، وبما أننا نجهل غيره ، فإننا سنفترض ليبية اسم "قارامنت" أصلاً ، ولنبحث فيه على هذا الأساس ، وفي كتاب سابق لنا[1] تعرّضنا ونحن نبحث في اسم قورينا لاسم "قارامنت" هذا في شيء من التفصيل اللغوي ، ولا نرى داعياً للعودة إلى هذا هنا أيضاً ، فليبحث من أراد أن يتوسع فيه هناك ، على أننا هنا سنضيف إليه بعض ما لم نورده هناك.

روبرت جريفس في كتابه "الميثولوجيا اليونانية"[2] تعرّض لاسم قارامنت في إحدى تهميشاته (3 ، 3) فجزّأه إلى مقاطع ثلاثة هي : قارا GARA ومان MAN وتي TE ، وقدّم لهذا تفسيراً بأن معناها "الشعب السيد لقارا"، ولكن ومع التسليم بتركيبة الاسم نخالفه فيما ذهب إليه فيما يتعلق بالمقطعين الأخيرين: MAN–TE ؛ ذلك أننا نجد

(1) - محمد مصطفى بازامه : قورينة وبرقة ، نشأة المدينتين في التاريخ ، مكتبة قورينا ، بنغازي، 1973م، ص120 وما بعدها.

(2)- Graves : Greek myths, 1955.

أوريك بيتس يورد في كتابه "الليبيون الشرقيون"[1] خريطة لما يقع غربي وادي النيل من الصحراء ، فيعين هذه المنطقة فيها باسم أُمنت AMENT[2] . وقد بحثت أمنت هذه في كتاب آخر لي[3] . وما يراه بيتس في دلالتها فانتهيت معه إلى أن معناها الغرب ، فإذا جعلنا اسم قارامنت مركباً من مقطعي "قارا" و"امنت" وليس كما فعل جرفيس من ثلاثة مقاطع ، فإن ما انتهى إليه لا يعود منسجماً وما نصل نحن إليه من "قارا" و"غرب".

وحول مقطع "قارا"، ومع مراعاة ما ذكرناه في قورينة وبرقة من حيث علاقتها باليونانية كلغة ، نجد الليبيين يطلقون على ما تآكل معظمه من المرتفعات وسط الصحراء وقاومت بقيته عوامل التعرية اسم "قارة" أو "قارا"، ولم نعثر في معاجم اللغة العربية الفصحى على أصل لهذا اللفظ نرجعها إليه ، فاحتملنا بقاءها في لغة الشعب من الليبية القديمة إلى اليوم .

ولما كانت القارة أو القارا تسمية لا تُطلق على بقايا الآكام المتآكلة إلاّ في المتوفر منها بفيافي الصحراء ، ولما كانت أمنت تسمية قديمة لما يقع غربي النيل وهو صحراء ، ولما كانت الريشة هي رمزها في الهيروغليفية ، وهذه قد ميز بها الليبي ، فإن المعنى الذي قد تدل

---

(1) - Oric Bates : The Eastern libyans, McMillan, London, 1914.

(2) ـ الصفحة 50 من الكتاب ، وقد تُقرأ "إِمنت" مراعاة للنطق الإنجليزي لحرف A .

(3) ـ محمد مصطفى بازامه : ليبيا ، هذا الاسم في جذوره التاريخية ، نشر اللجنة العليا لرعاية الفنون والآداب ، 1963م ، ص44 ـ 45.

عليه تسمية قارامنت يدور في محبط هذا الإطار : شعب ـ قوم ـ صحراء ـ غرب ـ قارة ، إلاَّ أننا نعجز عن تحديدها بدقة ، فقد تكون دلالتها قوم القارة ، أو ليبو الصحراء ، أو شيء من هذا القبيل .

• القارامنت والأساطير :

وما نعنيه بهذا العنوان ليست هي الأساطير الليبية القديمة ، فليست لدينا عنها أية معلومات ، وإنما هي أساطير اليونان التي جابوا بها معظم أقطار العالم المعروفة لهم ، وصاغوا لكل إقليم منها حكاية تصل معبودات أهله بعالم آلهة الأوليمب . وهكذا نجد ليبيا عندهم معبودة وقورينا حورية ...إلخ .

ولليونان في بدء الخلق قصص عددها روبرت جريفس وغيره من علماء الميثولوجيا اليونانية ، تُنسب إحداها إلى عالم الأوليمب ، وخلاصتها أن جيا Gea (الأرض) حينما خرجت من سديم الكون أنجبت وهي نائمة أورانوس Uranos (السماء) الذي نظر إليها من أعالي الجبال نظرة حب فأمطرها بمطر منجب فأنبتت العشب والزهر والأشجار ، وانساب الماء عبر الوديان والأنهار إلى المنخفضات فتكوّنت البحيرات والبحر . أما أول أبناء جيا الأقرب إلى صورة الإنسان فقد كانوا العماليق الثلاثة بريارقوس BRIARCO وجيجي GIGI وكوطو COTTO ، وكان بكل منهم مائة ذراع وهم بناة الجدران وسباكو الحديد.

تلك رواية عامة لأسطورة الخلق الأولومبية ، وقد أدخل

الليبيون فيها ـ حسب مزاعم اليونان ـ أسطورتهم عن قاراماس GARAMAS الجد الأعلى لشعب القارامنت فقالوا بأن جيا قد أنجبته من أورانوس قبل أن تُنجب العماليق[1] .

معنى هذا القول أن قارامس هو أول من أنجبت جيا (الأرض) من أورانوس (السماء)، أي أنه أول الآدميين قاطبة على الأرض ، ولكن لا يجب أن نفهم من هذا أنه كآدم أبي البشر ، فهو أصل القارامنت وحدهم وللبشر في ميثولوجيا اليونان آباء آخرون من خلق آلهة آخرين. وعلى كل فإننا نفهم من هذا قدم وعراقة القارامنت في نظر الإغريق بالنسبة لمن حولهم من الشعوب على الأقل .

• من هم القارامنت؟:

هؤلاء القارامنت نجدهم يسكنون إقليم فزان في القرن الخامس قبل الميلاد ودون أن نعرف من أمرهم شيئاً قبل ذلك : هل هم قوم أصليون؟ هل هم طارئون على الإقليم من خارجه؟ ما هي سحناتهم وما هي لغتهم؟... ولكن لا معنى لمثل هذه التساؤلات ؛ فما في رواية هيرودت نفسه ولا في روايات اليونان والرومان الذين جاءوا بعده وذكروا شيئاً عن القارامنت ما يحمل أو يدعو لإثارتها أساساً ، فهم قد جاءوا عنده كما جاء غيرهم من بقية الأقوام الليبية ، وحديثه عنهم كان حديثاً عن ليبيين لا أكثر ولا أقل .

---

(1) ـ عن أبولونيو روديو الرابع 1493م وما بعدها : بنداروس الشفايا ، 84 ، من طبعة Berg; .

هذه التساؤلات حديثة ، وطارحوها ذهبوا إلى الربط بين التمحو والجارامنت كجنس وسلالة ، وبين هؤلاء والهكسوس في استخدام العربة ، وبين صلة شعوب (أقوام) البحر والليبيين ، وقد أولاها محمد سليمان أيوب أهمية ، وبحث فيها وفضّل بعضها على بعض ولم يردها قناعةً منه بالصواب في الابتعاد بالجارامنت عن الأصل الليبي[1]، وهو ما لا نراه ولا نقره عليه اقتناعاً بأنهم شعب ليبي أصيل لم يطرأ على البلد من خارجها كما يريد البعض ممن يستكثرون على الليبي أن يكون صاحب العربة الحربية التي تجرها أربعة من الخيول المعروفة لدى اليونان والتي يقر هيرودت بأنهم كانوا فيها تلامذة البرقيين[2].

أما حديث هيرودت عن القارامنت في الفقرة الأولى (الرابع 174) فإنه لا يخلو من غرابة ؛ إذ إنه وصفهم بأنهم كانوا يفرون من الناس ، ولا يملكون أي سلاح ، ولا يعرفون كيف يدافعون عن النفس ، وقد جعل منازلهم تأتي بعد الناسامونة إلى الجنوب الغربي منهم . وأما في الفقرة الثانية (الرابع 183) فإنه يتحدث عن قارامنت آخرين لهم عكس هذه الصفات تماماً ، فهؤلاء عديدون وذوو قوة وبأس ، بغاة على جيرانهم ، يهاجمونهم في تحدٍّ ، ويطاردون الأثيوب (سكان الجنوب

---

(1) ـ محمد سليمان أيوب : جرمة في عصر ازدهارها من 100 إلى 450م ، ليبيا في التاريخ ، ص100. ونص العبارة :" لم نتوصل إلى الآن إلى معرفة أصل الجرامنت ولا الوطن الأول لهم ، كما أننا لا نعرف على وجه التحديد الزمن الذي جاءوا فيه إلى فزان ".

(2) ـ هيرودت : تاريخه .

الصحراوي)، وهم يستخدمون في ذلك عربات حربية ذات الأربعة جياد QUADRIGA ويشهد لهم بأنهم أفضل من يقودها بين الناس .

صنفان من القارامنت ليس بينهما ما يشتركان فيه غير الاسم فهل لهذا الأمر من تعليل ؟ إننا لا نرى ذلك إلاّ بالتوغل في دنيا الأساطير ، فإن قوم البسيلي الذين سيروا حملة عسكرية لمحاربة ريح الجنوب (القبلي) كانوا يستوطنون هناك وقد انقرضوا فحلّ في أراضيهم الناسامونة ، وهؤلاء القارامنت الشماليون يفرون من البشر ولا يملكون سلاحاً ولا يعرفون كيف يدافعون عن النفس ، فهل من تصوّر لأناس من هذا القبيل في عالم الواقع وفي دنيا الأحياء وفي أي مكان؟

وبالطبع فلم يكن القارامنت وحدهم هم سائر سكانه ، خلال الألف الأولى قبل الميلاد ولستة قرون أخرى بعدها ، فمما لا شكّ فيه أن الوضع كان خلالها كما هو بعد ذلك وإلى الآن ، ولكن الشح في المعلومات المدونة عنه وإلى حد جعل كاتباً كاسترابون يشكو من ندرتها هو المسؤول عن جهلنا بسكان فزان من غير القارامنت ، وإلاّ فإن أحداث الشمال والغرب والجنوب من هذا الإقليم تحمل على القول في شبه يقين إن إقليم فزان وطوال تلك الفترة كان مسرحاً لحركات تزحزح ونزوح وتدافع غيّرت كثيراً من سكانه الذين أصبحوا جنساً من أخلاط الناس ، فيهم من أهل الشمال كما فيهم من المتزنجين والزنوج، ما جعل سحنات أهله تجمع ما بين الأبيض والأسمر والأسود ، ولكل منهم انتماؤه العرقي أو العشائري وفي غير القارامنت !

نعم نجد بليني يورد في موسوعته "التاريخ الطبيعي" قائمة مطوّلة بأسماء أقوام ومدن وقبائل لا نخرج منها في حقيقة الأمر بحصيلة ذات بال تعيننا في الموضوع الذي نبحث فيه ، فهي مزيج غريب ما بين عالم الأساطير والخرافات وعالم الإنسان والجغرافيا لا يركن باحث جاد معاصر إليه ، وجاء غيره من بعده ناقلاً عنه أو عن سواه بمثلها مما لا يرضي نهم قارئ ولا يشبع فضول باحث جاد .

ونصل إلى آخر العهد البيزنطي (الرومي) بحصيلة فقيرة هزيلة من المعلومات عن سكان فزان لا تعيننا كثيراً في رسم صورة واضحة ولو بعض الشيء عن إقليم فزان وأهله في انتماءاتهم ، ولن نكوّنها إلاّ من خلال ما كتب العرب المسلمون بعد فتحه وبدء دخول العرب إليه في أواسط القرن السابع للميلاد .

ولقد أحسّ علماء الغرب ودارسوهم بهذا الفراغ الكبير الهائل في معلوماتهم عن فزان وسكانه قبل الإسلام (وهو ما يهمهم عادةً البحث عن تاريخهم القديم فيه) فاتّجهوا إلى سد الثغرات بمعطيات الحفريات والآثار، وفي هذا تنصب وعليه ترتكز معظم كتابات وبحوث ودراسات القرن العشرين . وحتى هذه وكما هو متوقع[1] فإن حصيلة

(1) ـ من المعروف والثابت تاريخياً أن اليونان لم يتجاوز نفوذهم غرباً منطقة قعر الخليج (اوتومالا) ولا بلغ في الجنوب أوجلة من برقة . وإن الرومان لم يستقروا بفزان أبداً وإن كانت لهم حملات عسكرية ضد أهله لم يعقبها استيطان وسلطان ، وبالتالي فإن المتوقع هو أن تكشف البحوث الأركيولوجية عن شيء له قيمته في تاريخ الرومان بهذه المناطق بالذات.

البحث حتى الآن هزيلة ، أما ما تم الكشف عنه من نقوش الصحراء ورسوماتها الملوّنة فهي قضية أخرى ولا شأن لها لا بالرومان ولا حتى بالجارامنت إلاَّ في أواخر عهود الفن الصحراوي (فترة الإبل).

وما إن دخلت خيل الفاتحين البلاد الليبية وفتحت برقة ، حتى اتّجه عمرو بن العاص باهتمامه إلى أراضي الجنوب الواقعة إلى الغرب منها فسير حملة من جند الفاتحين تحت قيادة عقبة بن نافع الفهري فنحتوا زويلة صلحاً ، وبهذا دخلت فزان من بعد برقة وقبل طرابلس عهدها الإسلامي وارتبط مجتمعها وتاريخها ومصيرها بسائر بلاد العرب والإسلام من جانب وبالسودان وأقاليمه من جانب آخر ، ولم تعد لها صلة بما قبل ذلك ، فقد "جبّ الإسلام ما كان قبله" ولم يعد سكانه في الإسلام يعرفون بالقارامنت .

ألف عام بل ولأكثر من ذلك لم نعرف لفزان سكاناً غير هؤلاء القارامنت ، أو على الأصح من سكانه غيرهم ، ثم اندثرت التسمية ، وامّحت ولم يبقَ لها من أثر بعد عهد الرومان الذي انتهى بأول دخول الإسلام .

سكان فزان

في العهد الإسلامي

• عمرو بن العاص وفتح فزان :

طريق الفتح الأول لطرابلس الغرب من برقة لا تمر قطعاً من فزان ، وبالتالي فليس فتح المسلمين لزويلة بمرحلة ولا عملية مهّدوا بها لفتح طرابلس ، كذلك هي ليست بالتي حتّمها فتح برقة ، فهي نائية عنها ومنعزلة لوقوعها بعيداً عنها في الجنوب الغربي بمئات الأميال ، ولعلّ الأصوب اعتبارها - لهذا - عملية فتح منفصلة وقائمة بذاتها كبرقة وطرابلس .

عمرو بن العاص يفكر وقد تمّ له فتح برقة صلحاً في فتح زويلة قبل تحركه بقواته لفتح طرابلس ، فيوجه إليها عقبة بن نافع الفهري على رأس سرية فيفتحها صلحاً ويصير ما بينها وبين برقة للمسلمين .

ويهتم بواحات الجفرة وهو لمّا يزل على حصار طرابلس ، فيسيّر إليها قوة يعقد عليها لبشر بن أبي أرطأة فيفتح هذا ودان . ولا يمكن أن يكون الفتح للموقع الثاني كالموقع الأول ضرورة حتّمتها عملية فتح طرابلس التي كانت آنذاك محاصرة برّاً وما من سبيل لنجدتها ، وبالتالي فهي الأخرى عملية منفصلة قائمة بذاتها ولا شأن لها ولا علاقة بفتح برقة ولا بفتح طرابلس ، بمعنى أن فتحها لن يتأثر

بالسيطرة على ودان ولا بعدم فتحها ، فكلا الأمرين وبالنسبة إليهما - لا إليها - سيان .

من هنا يمكننا القول بأن عملية فتح ليبيا قد بدأت ببرقة ، وثنّت بفزان قبل أن تنتهي بطرابلس ، أي أن فزان قد فُتحت بعد برقة وقبل طرابلس .

ونتساءل اليوم عن هذه الاستراتيجية التي خطط لها عمرو بن العاص ، وسار عليها في توسعه غرباً بالفتح الإسلامي من بعد أن تمت له السيطرة على برقة بفتحها سنة 642 للميلاد ، وعن الأهمية التي كانت آنذاك للجنوب الليبي حتى أولاها عمرو بن العاص اهتمامه ، فلا نرى فيها استراتيجية عسكرية ، ذلك أن المسلمين كانوا يحاربون النفوذ السياسي للروم المسيطرين على الأقاليم التي تُفتح ، ولكنهم يصالحون أهل البلد من سائر الأجناس ويسالمونهم ما لم يرفعوا في وجههم السلاح . وليس للروم البيزنطيين في أي موقع من سائر فزان وجود ولا نفوذ ، وربما لهذا نجد عمرو يتولى قيادة جند الفتح بشخصه حين مواجهة الروم ، ويعهد لقادته على سرايا يسيرها حين يتعلق الأمر ببلد ليس للروم فيها من وجود .

نعم قد نجد في مخططه هذا استراتيجية دفاع عما فتح وحماية لبرقة ، فودان منفذ شمالي من الغرب إليها ، وزويلة منفذ آخر جنوبي من نفس جهة الغرب ، إضافةً إلى أنها الباب الرئيسي لأواسط القارة ، أي السودان. أما ما هو واضح لنا من أهمية فيما افتتح فهو العامل الاقتصادي : إن طريق الذهب الإفريقي الوارد إلى أسواق مصر

بوفرة طوال العهد الروماني من مناجمه الواقعة غرب القارة وأواسطها يمر عبر ودان ، إن سلك به تجاره درب الصحراء الشمالي ، وعبر زويلة إن سلكوا درب الجنوب ، كذلك فإن ما يرد من بلاد السودان ، وما يصدر ويرد عبر موانئ الشمال فدروب قوافله المتشعبة تلتقي بزويلة ، ثم ومنها تتفرع إلى دروب السودان من جديد فهي ملتقى طرق وتجارة أو هكذا نجدها على الأصح في وصف اليعقوبي في البلدان على ما سيأتي ، فإن كانت تلك وظيفتها حين الفتح وقبله فإنه لا يعقل من رجل في وعي وذكاء وفطنة عمرو بن العاص أن تغيب أهميته عنها أو يهمل أمرها في مخططه ، لاسيما إذا نحن أخذنا بعين الاعتبار حاجة الدولة الإسلامية إلى الدرهم والدينار لينفق في تعبئة جيوش الفتح العربية المنتشرة في شتى الأنحاء والمرابطة على كل الثغور والجبهات ، وما اتّبع من سياسة فرض العطاء في مال الدولة ودخلها للأشخاص ، وغير ذلك من أبواب الصرف .

والذي يبدو لنا أن هذا الفتح الأول لم يستمر طويلاً ، فقد نقض أهل ودان صلحهم فأعيدوا إلى الطاعة مرغمين ، وكانت الروايات حول زويلة مشوشة مضطربة ما بين مبقٍ لها على صلحها وبين نافٍ لوجودها أصلاً قبل بدايات القرن الرابع الهجري مما قد يدل على عمران لها من بعد خراب وهجر لسكانها ولو لبعض الزمن . وعادةً يصحب هذا الوضع من الزحف والتراجع بين الجيوش المتحاربة ونفوذ الدول المتصارعة حالات من عدم الاستقرار ومن النزوح عن المواطن نشداناً للسلام .

• السكان الأصليون :

ليس لدينا معلومات كافية عن أهل ودان وأهل زويلة آنذاك ، إلاّ أن اليعقوبي يشير في البلدان إلى قوم سماهم لمطة فقال عنهم : "وبين زويلة ومدينة كوار ، وما يلي زويلة إلى طريق أوجلة وإجدابية قوم يقال لهم (لمطة) أشبه شيء بالبربر ، وهم أصحاب الدرة اللمطية البيض"[1] . هؤلاء القوم الذين يسميهم (لمطة) ليسوا هم ببربر عنده وإنما هم أشباه برير وحسب . وما نفهم نحن من تحديده هذا أن بلادهم هي ما افتتح عقبة بن نافع من الشمال في حملته الأولى بأمر من عمرو بن العاص ، ثم هي ما افتتح بقيتها حتى مدينة كوار فيما رواه ابن عبد الحكم من روايته في كتابه فتوح مصر وإفريقية[2] سنة 666 للميلاد. فإن عقبة بن نافع إنما كان في حملته هذه غايته التأديب لأهل ودان وأهل جرمة[3] وأهل (خاوار) وكما هي عنده ، وبالتالي فهو قد اعتبرهم الداخلين في الصلح بفتحه لمدينة زويلة سنة 643 ـ 644م. أو بعد ذلك وقبل سنة 666م.

أما عن ودان وأهلها فقد ذكر الإدريسي في نزهة المشتاق أن ودان

---

(1) ـ اليعقوبي : البلدان ، ص345.

(2) ـ راجع روايته هذه في : د.إحسان عباس ود.محمد نجم : ليبيا في كتب التاريخ والسير ، دار ليبيا ، بنغازي ، 1968م ، ص31 ـ وما بعدها.

(3) ـ ملك مدينة جرمة هو الثاني فيمن شملهم عقاب قائد الحملة التأديبي ، ولا نعرف أن الفتح الأول قد شمل بلاده ولكن لعل هذا قد حدث في إحدى الحملات العسكرية التالية بقيادة عبد الله ابن سعد بن أبي سرح أو سواه . ولم يكن قومه من أهل خاوار أو كوار ، فهم أهل فزان كجنس.

"كانت فيما سلف أكثر عمارة وكذلك الملك في أهلها ناشئاً متوارثاً إلى أن جاء دين الإسلام فخافوا من المسلمين فتوغلوا هرباً في بلاد الصحراء ، فتفرقوا ولم يبقَ بها الآن إلاّ مدينة دواد ، وهي الآن خراب ليس بها إلاّ بقايا قوم من السودان ...".

أهل ودان إذن هجروا أراضيهم بحسب هذه الرواية وتحولوا عنها جنوباً وتفرقوا في أقاليم الصحراء هرباً من دين الإسلام وخوفاً من المسلمين . ولا يفر أناس من دين جديد إلاّ حرصاً منهم على ما لهم قبله من دين ، فما هو يا ترى هذا الدين ؟ الرواية تقول إنه الإسلام ، وأن خوف أهل ودان كان من المسلمين ، فهل نقبل بها ونسلم دون مناقشة لها ولا تحليل ؟ إننا نعلم من قراءتنا للتاريخ أن مسلمي الفتح لم يفرضوا دينهم بالقوة على أحد ، فمن صالحهم تركوه على اعتقاده ، فقرآنهم ينص صراحةً على أن لا إكراه في الدين ، فإن خافوا إذن فمن غير المسلمين ، وإن هربوا وتركوا ديارهم فممن يفرض دينه ، ويرغم الناس عليه . ومن تاريخ المنطقة لذلك العهد وتلك الفترة نعلم أن الذين فعلوا ذلك هم الروم البيزنطيون ، وعلى عهد الإمبراطور جستنيان . فقد ذكر مؤرخه الرسمي بروكوبيوس أساليبه وعنفه في حمل الناس من سائر رعاياه على اعتناق المسيحية ونبذ ما هم عليه من معتقد غيره ولم يستثنِ من ذلك أحداً حتى اليهود .

من هنا نحتمل خطأ الرواية أو التصرف فيها ، وإلحاق التهمة بمن هم منها براء ، فما كان خوف الوداني وتركه أرضه ونزوحه

إيغالاً في الصحراء من المسلمين وإنما الأرجح أنه من الروم البيزنطيين، ومعنى هذا أن أهل ودان كانوا على وثنية ، وإن نزوحهم قد سبق أيام الفتح ببضع عشرات من السنوات .

أناس ودان وقوم لمطة ليسوا هم كل أهل فزان وسكانه ، فقد ذكر ابن عبد الحكم ، وذكر اليعقوبي أن في فزان أهله المنسوب إليهم أو المنتمون إليه أي الفزازنة ، وهم سكان وادي الآجال (وادي الحياة الآن) وحاضرتهم هي (جرمة). ومن سكان فزان الذين عرفوا باسمهم وميّزوا به : قوم (أزقار)، وقد تحدث عن هؤلاء وأولئك الشريف الإدريسي .

ولا نجد عند ابن عبد الحكم الكثير عن (فزانة) أو (الفزازنة) كما نسميهم اليوم ، فحديثه عن جرمة مدينة فزان العظمى ثم عن قصور فزان من غير أن يأتي لأيها باسم أو يعين المكان وروايته بنصها بعد استبعاد ما يتعلق بملكهم :" فقيل له جرمة ، وهي مدينة فزان العظمى فسار إليها ثماني ليالٍ من ودان [...] ثم مضى على جهته من فوره ذلك إلى قصور فزان فافتتحها قصراً قصراً حتى انتهى إلى أقصاها"[1].

أما اليعقوبي فهو وعلى الرغم من شدة الإيجاز يبين لنا أن فزان جنس قائم بذاته إلاَّ أنه ليس بموحد الأصل وإنما يكونه أخلاط الناس، وروايته فيهم بنصها :" وجنس يعرف بفزان أخلاط من الناس لهم

---

(1) - ابن عبد الحكم : فتوح مصر وإفريقية ، في : ليبيا في كتب التاريخ والسير للدكتور إحسان عباس والدكتور محمد يوسف نجم ، ص32 .

رئيس يطاع فيهم وبلد واسع عظيم"[1].

وأما الإدريسي فإنه وإن تحدث عن فزان كأرض (منطقة أو إقليم) وامتد بها جنوباً حتى حوالي القطرون ، فإنه لم يدخل فيها لا ودان ولا زويلة ، ولا ذكر من مدنها غير (جرمة) وغير تساوة وحسب ، ونص روايته : "ويلي أرض زغاوة أرض فزان ، وبها من البلاد مدينة جرمة ومدينة تساوة والسودان يسمون تساوة جرمى الصغرى . وهاتان المدينتان يقرب بعضها من بعض ، وبينهما نحو مرحلة أو دونها ، وقدرها في العظم وكثرة العامر سواء. ومياههم من الآبار ، وعندهم نخيلات ، ويزرعون الذرة والشعير ، ويسقونها بالماء نكلاً (نتلاً) بآلات يسمونها انجفة".

أما "أزقار"، وأغلب الظن أنهم الملثمون التوارق ، فقد تحدث عنهم الشريف الإدريسي (وغيره) فقال عنهم :" ومن مدينة تساوة إلى قبيل من البربر في جهة المشرق نحواً من اثني عشر يوماً ، ويسمون آزقار، وهم أهل نجدة وقوة وبأس ومنعة ، لكنهم يسالمون من سالمهم ويميلون على من حاولهم . وهم يصنعون ويربعون حول جبل يسمى "طنطة"[2]، وفي محيطه من أسفله ينابيع وعيون مياه جارية ومناقع كثيرة تجتمع بها المياه ، وينبت عليها الحشيش كثيراً ، وإبلهم ترعى

(1) ـ اليعقوبي : البلدان ، ص345 ـ 346.

(2) ـ جبل طنطة هذا وانطلاقاً من المسافة والجهة والوصف قد يكون هو ما يُعرف اليوم باسم "واو الناموس" أو هو واو آخر إلى الشرق منه يُعرف بـ"واو الكبير".

هناك ، وينتقلون منه إلى أمكنة من عاداتهم المقام بها"[1].

• برير وإباضية في فزان :

ليس من السهل القول بأن سكان فزان جميعهم ممن يعودون بأصلهم البعيد إلى مازيغ الجد الأبعد لسائر البربر ، سواء أكانوا من البرانس أو البتر ، ولا فصلهم كلياً عن البربر ، فالإقليم لوقوعه على أطراف مواطن البربر من الغرب والشمال ، وعلى أطراف مواطن شعوب الأفارقة المعروفين بالسودان من الجنوب ، ولكونها جانباً من مواطن الإنسان الذي استوطن الصحراء في العصر المطير ، ولما نراه من أن البربر طارئون على الشمال الإفريقي في حوالي القرن العاشر قبل الميلاد[2].

وإذا لم يكن سكان فزان القدماء من البربر وهذا ما نرجحه ، فإنهم من أسلاف البربر[3]، وهذا ما نرجحه بدليل استخدام القارامنت للعربة ذات الأربعة خيول ، وهذه مما يُنسب استخدامها لأول مرة في إفريقيا إلى الهكسوس ، وهؤلاء عاصروا أسلاف البربر وسبقوا قوم جالوت أصل البربر في الشمال الإفريقي .

ومن روايات التاريخ اليوناني ـ الروماني نعلم أن القارامنت لم

---

(1) ـ الشريف الإدريسي : نزهة المشتاق ، الجزء الثاني ، من الإقليم الثاني .

(2) ـ راجع حول أصل البربر ورأينا فيهم كتابنا : سكان ليبيا في التاريخ الأول : عصور ما قبل التاريخ ، الفصول : الثالث والرابع والخامس منه .

(3) ـ راجع الفصل الأول والثاني من المرجع السابق .

يفقدوا قدرتهم العسكرية وسلطانهم إلاَّ مع آخر العهد الروماني ـ الفندالي وذلك بسبب ما رمى به الإمبراطور جستنيان الشمال الإفريقي من قوات وجيوش جرارة في سنة 533 للميلاد.

في القرن السادس للميلاد وحسب، وأمام طغيان البيزنطيين بسلطانهم المتستر بالدين وملاحقتهم الوثنيين من الوطنيين ومن ناصر منهم الوندال أو اعتنق مذهبهم الأريوسي نحتمل دخول البربر الصحراء فراراً بمعتقداتهم وخوفاً من بطش بليزاريو ومَنْ خلَّفه وراءه ليحكم أهل تلك الأقاليم. في ذلك العهد دخلت مزاته وادي الشاطئ، ودخلت هوارة جانباً من الوادي الغربي، وربما بلغت طلائعها زويلة واستوطنتها مع أهلها قبيل الإسلام بقليل.

ولم يكن للفتح الإسلامي في حد ذاته من رد فعل على استقرار السكان، فالسيطرة على الوضع سياسياً كانت في صالح الوطنيين، ولم نقرأ عن مقاومة للبربر اللهم إلاَّ إذا كانوا مسيحيين رفضوا قبول الصلح ووقفوا إلى جانب الروم ضد المسلمين، وذلك في بدايات الفتح على الأقل، وإذا عاد البربر فحملوا السلاح وشهروه في وجه المسلمين ففي مرحلة تالية ولسبب آخر غير الاضطهاد الديني وغير التعنت السياسي.

ولكن وبنشأة الدولة الإدريسية، وانتشار الدعوة المذهبية الإباضية، واتخاذ كلتيهما مطية للعمل السياسي، تحوّلت المذهبية حزباً يعارض مذهب السلطان القائم الذي أصبح بدوره حزباً يؤيد الحكم ويناصره، فكان لابدّ من التصادم المذهبي السياسي في تعصب

وأن يؤدي هذا إلى عنف ومطاردة الأقوى للأضعف ، وبالتالي إلى التزحزح والهجرة والنزوح .

وكانت فزان بالحمادة الحمراء ورملة زلاف وحمادة مرزك وما شابهها من مساحات شاسعة جرداء ملجأً أميناً لمن يتعقبه السلطان ودار أمن تقي من بطشه ، ففر إليها الأباضي كما احتمى بفيافيها السني من الشيعة حين تحكمت من البلاد وفي رقاب العباد ، ثم للشيعي حين ضعف وافتقد القياد . وهكذا دخلت قبائل البربر إلى فزان من غرب وشرق وشمال ، وبما أن أغلب من يحيط بفزان من مزاته ونفوسة وهوارة فقد كان معظم من دخل فزان واستقرّ بها من البربر من هؤلاء.

• **عرب وتجار :**

وواحات فزان الواقعة على الدرب هي الباب والمنفذ إلى أقاليم ما خلف الصحراء ، حيث الثراء وأحلام الثراء ؛ عبرها تمر قوافل التجار من الشمال إلى الجنوب والعكس . ولما بين واحة وأخرى من مسافات يشق فيها السفر ، فإن معظم هذه تصبح محط رحال يجد فيها التاجر راحته وسوقاً لبضاعته . وقد تستهويه الحركة التجارية فيستقرّ ويتخذ الأهل وينجب الولد ، وقد تنقطع صلة هذا أو نسله بالأصل الذي هو منه فينصهر حينئذ في المقيمين ويعد في الفزانيين ، ولعل هؤلاء من قصد اليعقوبي بمصطلح "أخلاط الناس".

إلاَّ أننا نجده يحدد انتماءات الناس في زويلة ، ربما لعدم

انصهارهم أو لعدم انقطاع الصلة بأصولهم فيذكر : "بها [أي زويلة] أخلاط من أهل خراسان ، ومن البصرة ، والكوفة". وبالطبع فإن هؤلاء لم يأتوها ويستقروا بها طلباً للعلم ولا للسياحة وإنما اجتذبتهم أسواقها النشطة بما كان يردها من صادرات السودان وما يصدرونه هم (وغيرهم) إلى تلك الأقاليم .

والعلاقة ما بين الأقاليم شمالي الصحراء والأقاليم الواقعة جنوبها عريقة عراقة التاريخ ، فأقدم نص مدوّن يشهد بذلك يرجع إلى أربعة آلاف ونصف الألف من السنين ، قدمه لنا حرخوف (من الأسرة السادسة المصرية) مقرر الملكية ، أنه حينما بلغ أرض يام وجد ملكها قد سار على رأس جيشه لمحاربة قوم تمحو فلحق به ونصره على عدوه الليبي ، بل إننا نجد في رسوم الصحراء البدائية الأقدم من ذلك لوحات تمثل علاقات ما بين أجناس من الشمال وأخرى من الجنوب في حالتي السلم والحرب معاً وعلى السواء ؛ وعلاقات بمثل هذه العراقة لابد وأن ينتج عنها نوع من التمازج والتوافق ومن الخصام والتنافر ، ومن زحف أهل الشمال (الفيزان) حيناً على أقاليم الجنوب ، وتزحزح أهل الجنوب (النيجر وتشاد) من أقاليمهم للاستقرار في مناطق الشمال ومن بينها طبعاً فزان ؛ والحصيلة جنس هجين فيه من الأصول المكوّنة منها كل هذه الأمم والشعوب.

والذين درسوا ماضي أقاليم الشمال الإفريقي من الأوروبيين في العصر الحديث ، ولاسيما من الفرنسيين والإيطاليين ، ولأسباب سياسية وعقد نفسية ضد العروبة والإسلام ، رسّخوا في الأذهان

وبالتوكيد والتكرار تأخر امتداد النفوذ العربي المؤثر في الشمال الإفريقي إلى أواسط القرن الخامس الهجري والحادي عشر الميلادي ، ليغطوا فشل الرومان في التوصل إلى تحقيق ما حققه العرب في ذات الأقاليم ؛ لهذا وجد بينهم من زعم أن العرب لم يتغلغلوا في دواخل فزان وجنوبها إلاّ بعد تزحزح وانتشار العرب من بني هلال وسليم في إفريقية والمغرب ، ولكن هذا ليس صحيحاً إلاّ إلى حدٍّ فالعرب ومنذ عهد الفتوحات أخذوا في التوطن بالشمال الإفريقي أفراداً وجماعات ، إلاّ أن تعدادهم لم يبلغ غالبية السكان إلاّ بالتغريبة الكبرى لبني هلال وبني سليم ومن معهما من قبائل العرب الأخرى ، وبالتالي عملية تعريب المجتمعات البربرية لم تظهر للعيان لغلبة العنصر البربري بكثرة الأعداد .

وبالنسبة لفزان خاصة فإن شمال الإقليم (وادي الشاطئ) وفي احتمالنا وتقديرنا كان ولقربه من مناطق الشمال ربما كان سكانه أسبق تعرّباً من وسطه وجنوبه بالنظر لقربه وسهولة الوصول إليه ، أما واحات الجفرة (هون ـ سوكنة ـ ودان) فإنها كان لانعزالها النسبي عن أودية فزان وصلتها الأكثر بمدن الساحل (سرت ـ مصراتة ـ لبدة ـ طرابلس) قد نالها التعريب قبل غيرها ونسبة احتكاك سكانها بأهالي الساحل أكثف ، الأمر الذي مزج سكانها بالبربر والعرب معاً وعلى السواء .

حواضر فزان
في التاريخ

كل إقليم امتدَّ تاريخه وتعاقبت عليه حضارات وثقافات تتعدد فيه الحواضر وهي العواصم ، ويخلف بعضها بعضاً لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية متداخلة يتحول بها مركز القوة والقياد فيه من مدينة إلى أخرى فتزدهر هذه وتموت تلك أو تتقلص الحياة فيها وتنكمش ، وما من عجب في هذا ولا استغراب فهي مسيرة الأجيال في التاريخ . وفزان كغيرها إقليم من ثلاثة هي ما نعرفه اليوم باسم ليبيا، وقد كان يتصل بإقليم طرابلس مرة وينفصل عنها أخرى ، إلاَّ أنه وفي الحالين بعض ليبيا وطوال التاريخ . وهو كإقليم تابع لطرابلس أو غير تابع لها كانت له وعلى الدوام حاضرته السياسية - الإدارية - الاقتصادية التي يتخذ منها العهد والحاكم مقرّاً له .

ولا نعرف حواضره في عهود ما قبل الإسلام ، ولا يمكننا التسليم باستمرار قاراما (أو جرمة) عاصمة له ولبعض آلاف من السنين ، فليس هذا الثبات من سنن التاريخ لا في القديم ولا في الحديث ، أما في أول العهد الإسلامي فقد كانت زويلة ، ثم أصبحت تراغن ، ثم مرزك ومن بعدها سبها ، وقد تكون له أكثر من حاضرة واحدة في بعض الفترات ، وفيما سيأتي سنتحدث عن هذه الحواضر في حدود ما ستسمح لنا مصادرنا به ، ذلك أنني لا أدّعي لنفسي إقامة بفزان أو حتى زيارة لأي مكان منه ، وأنا أقر بهذا عيباً وأعترف به نقيصة ، ولكن في بلدي سعة

وفي الحياة مشاغل صرفتني ، ومن المعلوم أن ظروف العمل ومستلزمات الحياة هي في الغالب موجهة الإنسان في تحركه طوال الحياة .

• الحاضرة الأولى "جَرْمَة":

وأول حواضر فزان في التاريخ هي "جرمة" أو قراما نسبةً إلى القرامنت أو هم عُرفوا نسبة إليها وذلك بحسب مدرك التسمية الجغرافي أو الأتنوغرافي الذي نأخذ به .

والاعتقاد السائد بين الكتاب والمؤرخين الأوروبيين هو أن جرمة كانت الأولى واستمرت عاصمة للإقليم بلا منافس طوال فترات ما قبل الإسلام ، أي خلال عهد الحكم الفينيقي والحكم الروماني للشمال الإفريقي وحتى القرن الرابع للميلاد أو حوالي ذلك على ما يقرره البعض منهم ويراه .

وتفتح مدينة جرمة بالوادي الغربي من وادي الآجال أو اللاجال[1] إلى الشرق من أوباري وإلى الغرب من سبها وهي إلى الأولى أقرب بكثير.

وجرمة التي كانت حاضرة لإقليم فزان تُعرف "بجرمة القديمة" وهي محددة المكان بآثارها التي أبرزتها الحفريات منذ القرن الماضي وزادت المعرفة بها خلال القرن الحالي وقد كتب عنها الكثير في

---

(1) ـ الآجال وتُنطق شعبياً اللاجال من الأجل بمعنى الموعد المضروب ﴿ اجعل له أجلاً ينتهي إليه ﴾ أو من الأجل بمعنى آخر العمر ﴿ لا يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ﴾ وكرهاً لهذا المعنى الثاني غيرته الثورة حديثاً إلى وادي الحياة تيمناً وتفاؤلاً وأملاً .

اللغة الإيطالية وغيرها من اللغات الأوروبية ، وحتى في العربية نجد عنها كتابات لعل أفضلها وأكثرها تفصيلاً ما كتبه الأستاذ محمد سليمان أيوب الذي نقتبس منه الفقرة التالية في وصفها : "استقر الجرامنت بجرمة ، وكان مستقرهم فوق القمة العليا لزنككرا حيث يوجد بقايا ثلاث أو أربع أسوار سيكلوبية ، كما توجد أيضاً بقايا الدوائر التي كانت الأساسات التي نصبوا عليها خيامهم".

"وفي حوالي القرن الثالث قبل الميلاد نزل الجرامنت من القمة العليا ليستقروا على القمة السفلى لجبل زنككرا ، وهناك شيدوا مساكنهم فوق قمة الجبل الثانية وعلى المنحدرات حتى قرب السفح ، كما نحتوا المدرجات على الجوانب المنحدرة وأقاموا عليها الفيلات والمساكن والحدائق الشبيهة بحدائق بابل المعلقة ، وكان يحيط بهذا الموقع سور يمتد عند سفح الجبل ...إلخ"[1].

هذه المدينة القديمة التي يتفق محمد سليمان أيوب مع أصحاب الرواية الأوروبية القائلة بدمارها في حوالي القرن الرابع للميلاد إذ يقول : "... سنة 394م. ووصلت شرارة الثورة إلى جرمة ، ويظهر أن الدوناتيين قد أحرقوا جرمة لتعاونها مع الرومان"، "...وإن كانت المقابر والمباني تشير إلى انحطاط سريع في فنون العمارة ، وفقر متزايد في محتويات القبور مما يشير إلى التأثيرات السيئة التي تركتها تلك الاضطرابات "[2].

---

(1) - محمد سليمان أيوب : مختصر تاريخ فزان ، المطبعة الليبية - طرابلس ، 1867م ، ص49.

(2) - المرجع السابق ، ص55.

ويكاد يجمع من تعرض للموضوع على أن هذه الحاضرة القرمانتية قد امّحت وتلاشى وجودها بعد القرن الرابع للميلاد ، ولم يرد لها ذكر في مصادر التاريخ بعد ذلك ، إلاّ أن عبارة وردت عن كتاب صاحب البلدان تجعلنا نشك في هذا ونتردد في قبوله ، فقد قال اليعقوبي وبالحرف في كتابه :"... وجنس يُعرف بفزان : أخلاط من الناس لهم رئيس يُطاع فيهم ، وبلد واسع ، ومدينة عظيمة"(1) . فمن هذا الجنس الذي يسميه فزان ؟ وأين يقع هذا البلد الواسع الذي له رئيسه ؟ وهذه المدينة لم يعينها باسم ؟ ألا يحتمل أنها جرمة ؟ وإن البلد الواسع هو وادي الآجال (الحياة الآن)؟ وإن هؤلاء الذين يسميهم بفزان ، ويعدهم جنساً هم القرامنت؟ وإذا كان في هذا الذي احتملناه هو أن جرمة بقيت ولم تندثر على الأقل حتى أواخر القرن الثالث الهجري ، وإن لم تعد حاضرة لسائر الإقليم فقد أصبحت "زويلة" هي الحاضرة أو أن الفتح الإسلامي جعل منها الحاضرة .

ونعثر على رواية أخرى عند مؤرخ معاصر له هو ابن عبد الحكم شابها ثوب أسطوري خلال القرنين ونصف القرن التي فصلت الراوي عن أحداث ما رواه ، وفي هذا نجد ذكر فزان وجرمة والملك وزويلة التي لم تُؤسس بعد كمدينة . ونكتفي منها بالفقرتين التاليتين المتعلقتين بموضوعنا ؛ الأولى :"... ثم سألهم [أهل ودان] عقبة : هل من ورائكم أحد؟ فقيل له "جرمة" وهي مدينة فزان العظمى . فسار إليها ثمان

(1) ـ اليعقوبي : البلدان ، ص346.

ليالٍ من ودان، فلما دنا منها أرسل فدعاهم إلى الإسلام ، فأجابوا فنزل منها على ستة أميال ، وخرج ملكهم يريد عقبة ، وأرسل عقبة خيلاً فحالت بين ملكهم وبين موكبه ، فأمشوه راجلاً حتى أتى عقبة وقد لبث وكان ناعماً فجعل يبصق الدم ، فقال له : لم فعلت بي هذا وقد أتيتك طائعاً ؟ فقال عقبة : أدباً لك إذا ذكرته لم تحارب العرب"[1]. والثانية :"... ثم انصرف راجعاً [من خاور]، فسار حتى نزل بموضع زويلة اليوم ، ثم ارتحل ..." [2].

إن "جرمة" هي مدينة فزان العظمى وهي تبعد ثمانية مراحل عن ودان (جنوباً)، ولها ملك ، وأرضها واسعة وذات قصور افتتحت حصناً حصناً فهل ثمة بين هذه ورواية اليعقوبي السالفة من خلاف؟ ثم إن زويلة عند هذا مكان لم تشيد مدينته بعد ، وبالتالي فهما روايتان تتمم إحداهما الأخرى وترجعان إلى ذات الفترة الزمنية ، فابن عبدالحكم هو الآخر من أبناء القرن الثالث الهجري .

• الحاضرة الثانية "زويلة":

زويلة في المفهوم العام للجغرافيين والمؤرخين العرب مدينة وبلد يُنسب إليه ، ولكن زويلة في رواية اليعقوبي وعند ابن عبد الحكم ليست كذلك ، وهي عند البكري لا ترجع إلى أبعد من بدايات القرن الرابع

---

(1) - ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، لجنة البيان العربي - القاهرة ، ص262.

(2) - المصدر السابق ، والصفحة نفسها.

الهجري (306هـ). ولكن لا خلاف في أنها كانت حاضرة فزان على عهد ملوك بني الخطاب على الأقل (الرابع ـ الخامس الهجري)، ولهذا فإن وقفة تحليل ودراسة هذه الروايات لاستجلاء الغموض والتداخل فيها قدر الإمكان.

رواية اليعقوبي :" ووراء ذلك بلد زويلة مما يلي القبلة . وهم قوم مسلمون ..." [1]. إن زويلة هنا قوم لا أرض ، والأرض منسوبة إليهم ومعروفة بهم ، فهي عنده تسمية إتنوغرافية لا جغرافية ، وقوله "هم" تبرز ذلك وتؤكده . وإذا كان الأمر كذلك فما الذي افتتحه عقبة بن نافع الفهري سنة 22هـ؟ إن ابن عبد الحكم يقول في روايته ما نصّه : "... فسار حتى تزل بموضع زويلة اليوم" (وقد سبق منا تقديمه) وقال : "... ووجّه عمرو بن العاص عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة ، وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين". وليس في هذا ما يناقض قوله السابق أو ينفيه، فزويلة التي بلغ قد تكون منطقة كما قد يكونون القبيل وليس بالضرورة أن تكون مدينة أو بلدة أو واحة .

ولا نجد ما يشير عند البلاذري في فتوح البلدان صراحة إلى أن زويلة التي افتتح عقبة بن نافع الفهري مدينة أو واحة ، فعبارته "... قد ولي عقبة بن نافع الفهري المغرب ، فبلغ زويلة ، وإن من بين زويلة وبرقة سلم كلهم ...إلخ"[2]. أما بقية من تناول تاريخ المغرب (ما غرب مصر) من المؤرخين لعهد الإسلام فإن جميعهم تالٍ لهؤلاء ، وفي أغلب الحالات

(1) ـ اليعقوبي : البلدان ، ص345.

(2) ـ البلاذري : فتوح البلدان ، ص264.

راجع إليهم وناقل عنهم ، وبالتالي فإن حديثه عن زويلة إبان القرنين الثاني والثالث كمدينة لا يعتد به ولا يستند إليه لأنها وحين تدوينه كانت أمامه وبالفعل مدينة عامرة فتحدث عنها حديث الواقع الملموس .

من هؤلاء البكري في المسالك والممالك ، فهي عنده مدينة :"... وهي [زويلة] مدينة غير مسورة في وسط الصحراء..." [1]. وأيضاً :"... وبين مدينة زويلة ومدينة سبها مسيرة خمسة أيام"[2]. ومنهم الشريف الإدريسي في نزهة المشتاق ، إلاّ أن هذا حدد صراحة أنها لم تؤسس كمدينة إلاّ سنة 306 وأن بانيها هو عبد الله بن خطاب الهواري ونص روايته :" وفي جهة الشمال من هذه المدينة : زويلة ، بناها عبد الله بن خطاب الهواري وسكنها هو وبنو عمه في سنة 306 ، وهي منسوبة إلى هذا الرجل وبه اشتهر اسمها [زويلة بني خطاب]. وهي الآن عامرة"[3].

ولكن صاحب كتاب الاستبصار ـ وقد وجدها في عصره قائمة ومنذ زمن ، وجهل العصر الذي شيدت فيها ـ ذهب إلى القول :" مدينة زويلة مدينة كبيرة قديمة أزلية في الصحراء ، تقرب من بلاد كانم ، وهي من السودان ، وقد أسلموا بعد الخمسمائة من الهجرة ..." [4]. وواضح في هذا الرواية عدم إلمام الكاتب بماضيها وحاضرها ، فالإسلام

---

(1) ـ البكري : المسالك والممالك ، ص10.

(2) ـ المصدر السابق ، ص11.

(3) ـ مجهول : الاستبصار ، ص146.

(4) ـ الإدريسي : نزهة المشتاق ، ص24.

قد بلغها بدعوته ودعاته مبكراً وقبل غيرها من مدن وواحات الإقليم ، اللهم إلاّ إذا عني بقوله بعد الخمسمائة غلبة المذهب السني على أهلها أو أنه أراد من يحكمها ويسيطر عليها من أهل كانم آنذاك .

مما قدمناه يتضح لنا أن الخلط ما بين زويلة كقوم وزويلة كبلد قد أوقع الكتّاب في العجز والإرباك . ونغلب نحن رواية الإدريسي على غيرها فيما يتعلق بأمرها كحاضرة سياسية لفزان ، ونرى أنها كبلد قد سبقت هذا التاريخ ، إلاّ أن نشأتها الإسلامية ربما كالقيروان ، مع القيروان أو حتى قبلها ببضع سنوات ، ونحتمل أن الدافع والغاية حماية طرق المواصلات والتجارة ، فهي قد كانت مركزاً عامراً على عهد اليعقوبي (النصف الثاني من القرن الثالث الهجري) يستوطنها عرب وتجار من أهل خراسان ومن البصرة والكوفة وربما آخرون .

ولا يتحدث اليعقوبي عن مباني زويلة ومزارعها وإنما عن مركزها التجاري ونشاطها الاقتصادي[1] . وإنما يفعل ذلك البكري[2] . ويجمع الإدريسي في الحديث عنها بين هذا وذاك[3] . وتحدث عنها صاحب كتاب الاستبصار[4] وياقوت الحموي في معجم البلدان[5]

(1) ـ اليعقوبي : البلدان ، ص10 ، من ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات .

(2) ـ البكري : المسالك والممالك ، ص34 ، من ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات.

(3) ـ الإدريسي : نزهة المشتاق ، ص50 ـ 51 ، من ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات.

(4) ـ مجهول : الاستبصار ، ص60 ، من ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات.

(5) ـ ياقوت : معجم البلدان ، ص69 ، من ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات.

والقزويني في آثار البلاد[1]. وابن سعيد في بسط الأرض[2]. وغير هؤلاء من الجغرافيين العرب، فنقل بعضهم عن بعض من تصرف في العبارة أو كما هي رواية مصدرة وبنفس الألفاظ ، ومع إضافة لما عنده عنها من معلومات تاريخية طرأت فغيرت من واقعها في عصره وإن كان هذا قليلاً ولا تفصيل له أو فيه . ومن جماعها نتوصل إلى أن زويلة بلدة متحضرة وسط الصحراء ذات عمران وأسواق عامرة وقاصدها كثير ، وهي وبحكم الموقع مركز تجميع وتوزيع للسلع وما يجلب إليها من الشمال والشرق والغرب والجنوب، وإنها مركز السلطان ومقر الحكام وحاضرة الإقليم حتى آخر عهد ملوكها من آل خطاب الذي قضى عليه مملوك صلاح الدين الأيوبي قراقوش الأرمني ، وعلى الرغم من تحوّل السلطان عنها بعد ذلك وفقدانها المكانة السياسية في عهد سيطرة ملوك كانم عليها إلاّ أنها حافظت على مكانتها كمركز للتجارة والاقتصاد لا يضاهيه سواه .

• الحاضرة الثالثة "تراغِنْ":

وهي إلى الغرب من زويلة وإلى الشرق من مرزك في منتصف المسافة ما بينهما على وجه التقريب ، اتخذها المايات (مفردهم : ماي) نواب سلطان كانم مقرّاً لهم إبان سيطرتهم على فزان ، ربما لعدم راحتهم واطمئنانهم للعنصر الوطني في زويلة التي كانت ولقرون

(1) ـ القزويني : آثار البلاد ، ص79 ، من ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات.

(2) ـ ابن سعيد : بسط الأرض ، ص80 ، من ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات.

حاضرة للإقليم . وكما ظلت تساوة مركزاً لوادي الآجال (الحياة) بعد تدهور حالة جرمة القديمة إلى حد تسميتهم لها بجرمة الصغيرة ، فإن زويلة التي لم يلحق بها تدهور عمراني أو اقتصادي حتى وإن فقدت سلطانها السياسي كعاصمة للإقليم قد استمرت على ما كانت عليه مركزاً نشطاً للتجارة يؤمّها الجميع .

وكما حدث ويحدث دائماً من كراهية المستعمَر (بفتح الميم الثانية) للمستعمِر (بكسرها) وعهده وما يذكره به فإن ما نعثر عليه من أخبار هذه الفترة الزمنية التي امتدّت طويلاً (حوالي القرنين) لا يكاد يعدو الإشارة العابرة غير المباشرة في حالة أو حالات ، وعند الحديث عن زويلة ولا ذكر فيما اطّلعنا عليه من كتابات المعاصرين لهم لحاضرة فزان تراغن هذه عند أحد ، وتلك المعلومات النزرة إنما ندين بها للآثار ولما كتب الأوروبيون ، وحتى هذا في الواقع جدٌّ قليل .

ولعل أوضح إشارة في مصادرنا العربية لذلك العهد هي ما جاء عنهم ابن سعيد في "بسط الأرض" وفيها يقول : "... وفي شرقيها [أي ودان] بلاد فزان وهي أيضاً جزائر نخل ومياه ، ولها مدن وعمائر أكثر من ودان ، والجميع الآن في طاعة ملك الكانم . وقاعدة فزان مدينة زويلة ..."[1] . هكذا بإسقاط تراغن من الحسبان والاستمرار باعتبار زويلة هي الحاضرة لفزان .

(1) ـ ابن سعيد : بسط الأرض ، ص61.

• الحاضرة الرابعة "مرزك":

وهي أشهر حواضر فزان لنا وأبعدها جنوباً ؛ إذ ليس وراءها غير القطرون التي وإن كانت لها بعض أهمية بين مدن الواحات من فزان إلاّ أنها لم تتخذ حاضرة أبداً .

ومدينة مرزك هذه (أو مرزق) مستحدثة ، لا ترجع عهداً إلى أبعد من القرن الخامس عشر للميلاد ، وإن كنا لا ننفي عنها احتمال كونها كانت مركزاً سكنياً صغيراً قبل أن يتخذ منها رأس أسرة أولاد إمحمد موطناً له ومقرّاً لحكم تواصل من بعده لبنيه ؛ إذ لا ذكر لمرزك أو مرزق هذه قبل ذلك فيما كتب الجغرافيون وأصحاب الرحلات عن فزان من العرب القدماء . أما عن العهد التركي العثماني بطوله فإن الإشارة إليها والحديث عنها والوصف لها لا ينقصنا فيما كتب العرب والرواد الغربيون الذين جابوا البلاد حتى بدايات القرن العشرين ؛ ذلك أنها استمرت تؤدي دور الحاضرة لفزان حتى استلبته منها مدينة سبها الواقعة في الشمال ، والتي كانت قائمة بدور الحاضرة الثانية على الأقل منذ القرن السادس عشر للميلاد .

وإذا كانت معلوماتنا الوصفية عن حواضر فزان السابقة غائمة مشوشة محدودة لما عفى عليه الزمن منها في أخبارها وآثارها ومعالمها ، فإن استمرار العهد بمرزك كحاضرة ، وقرب هذا العهد منا ، وما سجله المؤرخون والرواد والعسكريون عنها في القرن الماضي ، وهذا القرن يجعلنا أحسن حظّاً وحالاً من حيث الإلمام بما يتعلق منها بالوصف للمعالم والمعلومات .

ولعل من أكمل المعلومات عن مرزك في أواخر عهدها كحاضرة لفزان ، وقبل أن تمسها أيدي المستعمر بالتغيير في المعالم والبناء ، ما كتبه زائرها الإيطالي كورادو زولي CORRADO ZOLI وهو لما يزل بعد صحافياً في رفقة حملة الكولونيل مياني سنوات 1913 ـ 1915م، ونشره في كتابه "في فزان NEL FEZZAN" فهو قد تناول منها ذلك الحاضر الكئيب الذي تعيشه وقد فقدت ازدهارها وموارد ثرائها الذي حاول تصويره فتصويره استفساراً واستقراءً حسب الطاقة وقدر الإمكان(1) . ونكتفي مما قدم بالرسم الطوبوغرافي الذي قدمه لها كما هي في سنة 1913 ـ 1914م، ففيه ما يوضح الصورة التي كانت عليها مرزك حاضرة الإقليم في ماضيها البعيد والقريب، الذي جعل بعض كتاب الغرب من زوارها في العهد التركي يُطلق عليها لقب "باريس الصحراء".

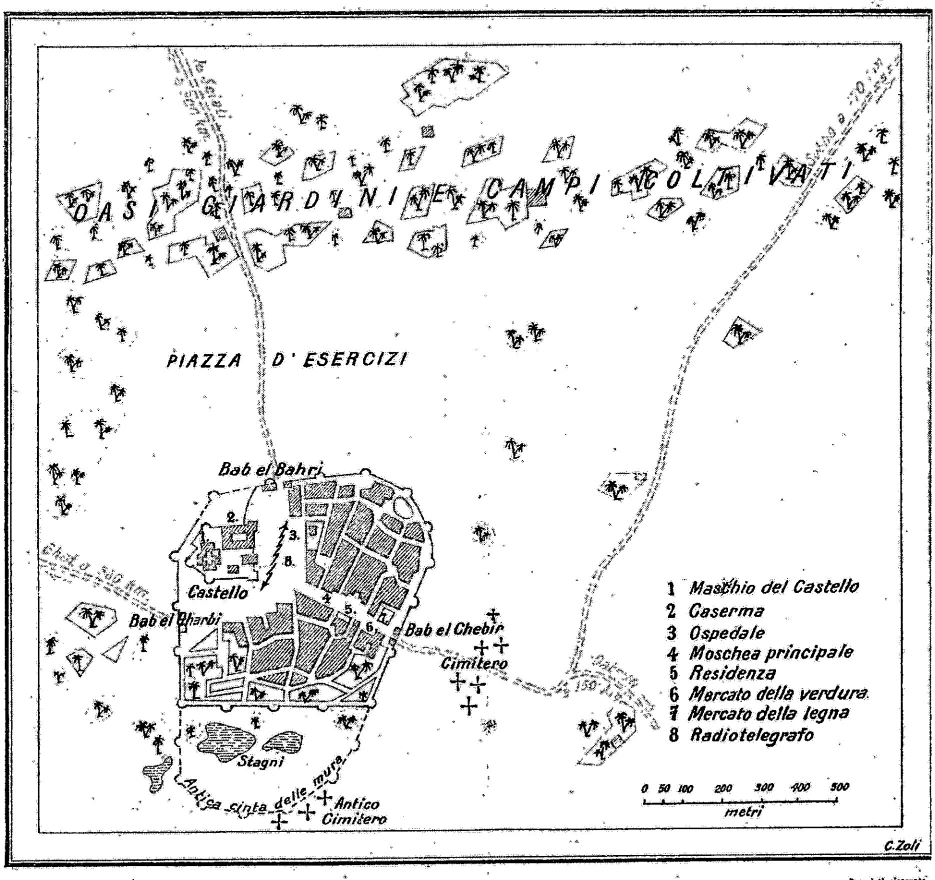
ومع أن مرزك المتألقة الثرية المزهرة قد أفل نجمها كباريس الصحراء منذ عشرات السنين وكسدت أسواقها منذ أواسط القرن الماضي وتحول طرق القوافل الكبرى التي تعد إبلها المحملة بالآلاف من فزان إلى الكفرة؟ فإن شيئاً من ذلك الماضي لاتزال ظلاله منعكسة في أرقى ضروب الغناء الشعبي المعروفة بالمرزكاوي ، الدالة على مجتمع حضري مرفّه ذواقة يطربه الرقص والغناء وتشتهر فيه الفنون .

---

(1)- Corrado Zoli : Nel Fezzan, note e imperessioni di virggio. Milano, 1926. pp.109-124.

Pianta di Murzuch

TAV. XIII



Serv. Cartografico del Ministero delle Colonie - N. 672-m.-1926

Proprietà riservata

• سبها آخر الحواضر لفزان :

وآخر حواضر فزان التي خلفت مرزك هي سبها (وترسم سبهى وسبهة) الواقعة بالوادي الشرقي من وادي الآجال (الحياة الآن)، ومع أن مدينة سبها لم تكن بالعاصمة لفزان إلاّ في عهد جد متأخر وقريب ، فإنها كانت مع هذا مركزاً هاماً بشمال الإقليم منذ أوائل الألف الثانية للميلاد على الأقل ؛ إذ ذكرها البكري في المسالك والممالك فوصفها بأنها "مدينة كبيرة وبها جامع وأسواق". ونجدها على عهد بدايات سلطنة أولاد إمحمد (القرن السادس عشر) تقوم بدور الحاضرة الشمالية للإقليم مشاطرةً ذلك مرزك حاضرة الجنوب ومقر حكم سلاطين هذه الأسرة.

إن سبها لم تستطع الاحتفاظ حتى بدور حاضرة الشمال آنذاك، فقد نافستها أوباري كمركز تارقي لشطر وادي الآجال (الحياة الآن) المعروف بالوادي الغربي . كما نجد مدينة براك ـ أهم مدن وادي الشاطئ ـ تنافس هي الأخرى سبها دورها هذا وتحاول الاستئثار به .

والذي يبدو لنا أن مرد تنافس هذه الحواضر الأربع على الدور القيادي إلى الانتماءات العرقية والقبلية للسكان ، فقد كانت براك وسبها عربيتان وكانت أوباري للتوارق (والبعض يكتبها : الطوارق) أما مرزك (والبعض يكتبها : مرزق) فقد كانت للسودان.

وعلى عهد آخر القرمانليين اتخذها عبدالجليل سيف النصر إبان ثورته على يوسف باشا ، واستمراره بها على عهد ابنه علي ،

وبدايات المعهد العثماني الثاني إلى أن قضى على الثورة وعليه.

ولم يجعل الولاة الأتراك في عهدهم العثماني الثاني حاضرة واحدة لفزان ، بل إنهم قسموها إلى عدد من المديريات ، فأصبحت مدينة سبها مركز المديرية (ناحية) الوادي الشرقي ، وحسب .

وفي عهد إيطاليا اتخذت هذه المدينة حاضرة لسائر فزان إلاّ أن براك الشاطئ أصبحت بدورها مركز قيادة حاميات الجنوب أو المنطقة العسكرية للجنوب .

وفي عهد الاحتلال الذي أعقب الحرب العالمية الثانية ثم في عهد النظام الاتحادي بعد سنة 1951م أصبحت مدينة سبها هي العاصمة ومقر الحكم لولاية فزان ، ثم إنها فقدت هذه المكانة أخيراً بالتعديل الدستوري الثاني الذي تحوّل بالدولة من الاتحاد إلى الوحدة، وكان هذا سنة 1963م ومن يومها لم تعد هناك من حاضرة سياسية واحدة لفزان.

آل خطاب

بزويلـــة

• تقديم :

لا نعرف على وجه اليقين من كان يحكم فزان ، ولا أي والٍ كان يتبع من الولاة والولايات ، بل ولا حتى ما إذا كانت مناطقه تكوّن فيما بينها وحدة أم أن كل جانب منه كان يحكمه أمير ، وذلك طيلة القرون الهجرية الثلاثة الأولى أو حوالي ذلك ، وأول خبر عن فزان من هذا القبيل نعثر عليه عند اليعقوبي في البلدان ، فقد ذكر أن فزان بمعناه الضيق (دون زويلة ودون ودان) عليها رئيس مطاع فيهم ولهم عاصمتهم وأنهم كانوا مع مزاته (من البربر) حرب لاقح أبداً ، وهم الغالبون على ودان. أما زويلة فهم أكثر أهل زويلة "وهم قوم مسلمون أباضية كلهم..." وهذه أول إشارة لانتشار هذا المذهب في فزان تأتي سابقة لحكم الأسرة الأباضية التي حكمت زويلة وعُرفت بآل خطاب.

ومع أن علي يحيى معمر في كتابه (الأباضية في موكب التاريخ) قد خصّ الأباضية في فزان بفصل منه تحدث فيه عن الواقع السياسي كلاماً عاماً لا يفيد باحث ولا يلقي ضوءاً ، فقد تجنب ـ وعن قصد ـ الإتيان باسم "آل خطاب" ليس في هذا الفصل وحده بل وفي سائر كتابه بحلقاته الثلاثة . وهو مستغرب إذ لا يبعد "آل خطاب" عن الأباضية ولا يقلل من مكانتهم السياسية كملوك لزويلة أنهم من

قبيلة هوارة وليسوا من نفوسة التي يتعصب في كتابه لها .

ورغم ما ذكرناه فإننا نجد من المفيد للقارئ الوقوف على أبرز ما أورده مما يخصنا ويتعلق بهذا البحث ، قال :" أقصد بكلمة (فزان) هذا الشريط الصحراوي الذي يمتد جنوب ليبيا من حدود مصر إلى حدود الجزائر ، وقد كان هذا الشريط ممراً هاماً للجيوش الإسلامية الفاتحة ، ثم صار جزءاً هاماً من الدولة الرستمية . وكان في كثير من الأوقات يتصل إدارياً بعاصمة الإمامة في تاهرت ، وعندما انقرضت الدولة الرستمية، أصبح بعضه يتبع إدارياً حاكم جبل نفوسة ، واستقلت بعض جهاته الأخرى من أتباع الحكومات الأخرى ، على أن هذه الحالة لم تدم طويلاً ، وأصبح فيما بعد يتبع الحكومات القائمة في طرابلس أو في برقة . هذا من الناحية السياسية ، أما من الناحية الدينية فقد كانت فزان معقلاً من معاقل الأباضية زمناً غير قصير "(1).

هذا حديث أباضي عن الواقع السياسي للأباضية في فزان ، أما ما يقدمه التاريخ من مادة في الموضوع وما توصلنا نحن إليه من دراستها واستقرائها فإننا سنقدمه لك في هذا الفصل من الكتاب باعتباره صفحة من صفحات تاريخ فزان(2) .

---

(1) ـ علي يحيى معمر : الأباضية في موكب التاريخ ، الحلقة الثانية : الأباضية في ليبيا ، القسم الثاني ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، 1964م ، ص51 وما بعدها.

(2) ـ مادة هذا الفصل بكامله بعض فصل من كتاب آخر لنا دون معظمه وهو بعنوان (تاريخ ليبيا في العهد الفاطمي)، ولكن هنا يأتي بتصرف يجعله مختلفاً في العرض عن ذلك.

• دولة بني الخطاب :

في زويلة ، وبعد سنة 306هـ وحتى سنة 568هـ، أي لفترة من الزمن امتدّت لحوالي 260 سنة كانت هناك دولة مارست الحكم مستقلة عمن حكم الشمال من الدول والولاة ، تلك هي دولة بني خطاب .

وقد ارتبطت نشأة هذه الدولة بنشأة الدولة الفاطمية ، وكانت نشأتها ناتجة عن انتصار هذه الأخيرة ، وهيمنتها على إفريقية وسائر الشمال الإفريقي ، وإصرارها على فرض مذهبها الشيعي على الناس من جانب ، وعن شدة تمسك بني خطاب ومَن على مذهبهم الإباضي بما يعتقدونه ، وهجرتهم فراراً بما يعتنقون إلى حيث لا يمتد النفوذ الفاطمي من جانب آخر . وهذا يعني ببساطة أن دولة بني خطاب في زويلة كانت نشأتها ومنذ الوهلة الأولى إباضية أي عقائدية ، وكانت نشأتها رد فعل للدولة التي فرضت نفسها عقيدة شيعية ونظاماً وليس لتطلعات سياسية محضة وحسب .

نستدل على ما قدّمناه من بعض الشواهد والقرائن الواردة في التاريخ حول هذه النشأة والمتعلقة بها بشكل أو بآخر ، من مثل أن المؤسس لهذه الدولة من بني خطاب ومنازل هؤلاء على ساحل البحر بين قابس و زوارة ، حيث يذكر الإدريسي لهم قصراً بين القصور هناك ، ومن مثل أن التاريخ الذي يعيد الإدريسي إليه بداية عهدها هو 306هـ (918 ـ 919م)، وفي هذه السنة ذاتها نجد المهدي يشرع في بناء عاصمته المهدية ، ويُطلق على الجانب غير الرسمي منها اسم "زويلة"، ويسكنه

التجار والصناع والعمال والعامة ، وزويلة هي المدينة التي أسست فيها دولة بني خطاب ، ومن مثل أن الجنوب (القبلة)والجبل وزويلة هي المعقل لأصحاب المذهب الأباضي ، وهذه المناطق لم تدخلها الفاطمية لا كدعوة عقائدية ولا كدولة وسلطان ، فقد كانت هوارة وكانت نفوسة إلى جانب الغيرة على المذهب الأباضي حريصين على أن لا تجد كتامة (القوة الشعبية الضارية) طريقاً إلى داخل مواطنهم بحال .

هكذا أسست هوارة لنفسها دولة في وسط الصحراء أباضية المذهب ، غير دولة نفوسة الأباضية التي كانت قائمة من قبل بالجبل ، واجتذبت إليها هوارة ودان وزويلة ، وهكذا لم تعد ليفرن من علاقة بهوارة ولا من نفوذ . وحمت هذه الدولة الناشئة نفسها بالصحراء والانعزال وربما أيضاً بالحياد ، وصرفت همها إلى التجارة مع السودان والشمال ، فمكّنها هذا من أن تبقى وأن يستمر عهدها لأكثر من قرنين ونصف القرن حتى ضعفت واضمحلّت فأمكن لمغامر طارئ كقراقوش أن يقضي على آخر ملوكها وينهي عهدها في يسر وسهولة.

كان قيام دولة بني خطاب في زويلة على أساسين اثنين : الدين والقومية ، أو بتعبير أدق وأخص : الأباضية كمذهب وهوارة كانتماء ، وقد ظلت لها قوتها وسلطانها مادام هذان الأساسان عميقي التأثير في نفوس الرعية والحكام ، ولذا فإن تخلي هوارة عن الأباضية إلى السنّة ، وقبولها لما طرأ على الإقليم من دخول قبائل العرب وتمازجهم بهم وانصهار بعضها في بعض أضعف التعصب الديني والعصبية القبلية معاً فضعفت الدولة الخطابية بضعفهما ولم يعد من مبرر لوجودها

غير دافع الاستمرارية والحرص على البقاء ، وليس هذا لوحده بالساند القوي بالتأكيد.

• زويلة المهدية وزويلة فزان :

حيرتنا مدينة زويلة هذه التي بفزان في أمر نشأتها ، فعقبة بن نافع الفهري يمر عليها وهو عائد من حملته على كوار سنة 666م، وهي لا تزال أرضاً فضاءً لم تقم عليها المدينة بعد ، وعبد الله بن خطاب يبنيها مدينة يسكنها هو وأهله ويؤسس بها دولته سنة 917م. هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فزويلة مدينة قائمة فتحها عقبة صلحاً سنة 643م. وزويلة يصفها اليعقوبي مدينة عامرة مطروقة نشطة مكتظة قبل سنة 888م. فما الذي نأخذ به من بينها ونرجحه على سواه ، والقائل بالأولى ابن عبد الحكم ، والقائل بالثانية الشريف الإدريسي ، وصاحب الثالثة البلاذري وابن الأثير ، وصاحب الرابعة اليعقوبي؟ إننا من هذا في حيرة من أمر نشأة زويلة فزان ، وزويلة السودان ، وزويلة بني خطاب ، ونبحث عن حل للقضية فلا نحتمله إلاّ في خرابها وعمارها أكثر من مرة ، وكلٌّ تحدث عنها بما كانت فيه وعليه.

هذه قضية ، وقضية أخرى ليست بأقل تعقيداً منها هي تزامن إقامة عبد الله بن خطاب لزويلة التي بفزان ، وإقامة عبدالله المهدي لزويلة بالمهدية إذ تم ذلك من كليهما سنة 306هـ (917م). وليس في أن يشرع هذا ويشرع ذاك كل منهما في بناء حاضرة له ويجمع بينهما العام من الغرابة ، وإنما الغرابة - كل الغرابة - أن يسمي كل منهما

مدينته بنفس الاسم "زويلة".

هذا الأمر ولذاته دفع بنا إلى التساؤل عما لهذا اللفظ من معنى أو عما قد يكون له من معنى في لغة القوم ومفهوم الناس آنذاك غير كونه اسماً للمدينة ، فقد يكون في هذا التعليل ؛ فعدت إلى اللهجات المحلية باحثاً عمّا للفظ زويلة من أشباه ، فكانت حصيلتي ما يأتي :

1 - "زويلة" قد تكون تصغير لـ"زالة" إذ نجد وبالفعل بلدة أخرى شمال شرق زويلة باسم "زلّة"، وقد كان ينطق "زالة" أو جاء هكذا في بعض كتب الجغرافيا العربية . وفي واحات الكفرة (شرقها) ما يدعم هذا الاتجاه: الطلاب والطليليب ، البومة والبويمة ، الهواري والهويويري.

2 - "زال" في العربية الفصحى : جذر أصيل بمعنى : تلاشى - اندثر - لم يعد له من وجود ، ومن مشتقاته الزوال .

3 - "الزول" في لهجة السودان العربي : الرجل ، وفي اللهجة الشعبية الليبية ما يتراءى للناظر من بعيد من جسم إنسان يصعب تحديد جنسه ذكراً أم أنثى ، و"الزول" أيضاً : القد والقوام المشوق .

4 - "الزويلي" مكيال كان متخذاً لكيل الأشياء كالحبوب ، أو هو قدح يُقدم فيه لبن الإبل وغيره .

5 - "الزيوالي" في تونس وفي بربرية الجبل (جادو) بل وفي الشعبية عموماً تعني: البائس والفقير ومن لا ساند له ، أو ما يدور حول معنى الانفراد والاحتياج.

6 ـ "الزوايل" جمع "الزايلة" وهي الناقة أو الجمل في شائع اللفظ الشعبي ، وقد تأتي بالميم بدلاً من الياء :"زاملة وزوامل" عند من لا يفرق بينهما دلالة ، فالزايلة هي المعدة للحمل والأخرى هي المرضعة للحوار (القعود) فيما أعتقد ، إذ "الزمالة" (بكسر الزاي) عصابة الرأس وتُطلق على (أشمال) الناقة اللبون لمنع ولدها عن رضاعتها.

كل هذه المفردات (زالة - زال - زول - زويلي - زيوالي - زوايل) لا نجد في أي منها ما قد يرشد أو يساعد على حل للقضية التي نبحث فيها وهي لماذا زويلة وزويلة ، ورغم هذا ، ورغم أننا نعلم أن الأسماء لا تعلل ولا تعاد إلى دلالات أصولها ، فإن اتخاذ كل من عبد الله وعبيد الله اسم زويلة لحاضرة ملكه وفي ذات العام تدفع بنا وتلح على أن نجد لهذا الأمر تفسيراً وتعليلاً ، وليس أمامنا بعد هذا سوى التاريخ والجغرافيا التاريخية ، أو بعبارة أخرى استقراء المعنى من وصف المدينتين ومن معطيات التاريخ العام فقد نصل من هذا الطريق إلى ما نبحث عنه من تعليل .

إن ما ننطلق منه هنا هو أن زويلة فزان حملت اسمها هذا وعُرفت به قبل أن يخلق عبد الله بن خطاب ، واستمرت تحمله طوال عهد هذه الأسرة والعهود التالية له ، ولاتزال تحمله إلى اليوم ، ولهذا فإن آل خطاب لم يكونوا هم أصحاب هذه التسمية ولا حتى بالذين تخيروه له بين أسماء . أما زويلة المهدية فهي التالية ، وهي المقتبسة للاسم عن تلك . ولقد تقدّم وصف اليعقوبي ووصف البكري ووصف الإدريسي لزويلة السودان ، وكانت الصفة الأبرز في الروايات الثلاث

لهذه المدينة هي أنها مركز تجاري يلتقي فيه أصحاب السلع وتتجمع عنده وتفترق الدروب والطرق ، أي أنها بعبارتنا نحن مركز هام لتصريف البضائع وملتقى مهم للتجار.

أما زويلة المهدية فإننا لن نجد لها ذكراً عند اليعقوبي الذي سبقها بعهده ، ولم يكن هذا باسم للمنطقة التي قامت عليها بعده ، ومع أنها كانت موجودة وعامرة أيام ابن حوقل فإنه وصف المهدية ولم يذكر زويلة وهي منها على مرمى السهم . أما البكري وكذلك الإدريسي فقد تحدثا عن مدينة السلطان ، وهي "المهدية"، وعن مدينة للتجار وهي "زويلة" . ونكتفي هنا بما قدّمه الإدريسي عنها في نزهة المشتاق ، قال :"... والمهدية في حين تأليفنا لهذا الكتاب مدينتان : إحداهما مدينة المهدية ، والثانية مدينة زويلة . ومدينة المهدية يسكنها السلطان وجنوده ، وبها قصره [... ... ...] وبمدينة زويلة الأسواق الجميلة ، والمباني الحسنة ، والشوارع الواسعة ، والأزقة الفسيحة . وأهلها تجار مياسير نبلاء ، ذوو أذهان ثاقبة ، وأفهام ذكية ، وجل لباسهم البياض ، ولهم هممهم في أنفسهم وفي ملابسهم ، وفيهم الجمال، ولهم معرفة زائدة في التجارات ، وطريقتهم حميدة في المعاملات ! ولهذه المدينة من جهة البر خندق كبير (صهريج) تستقر به مياه السماء ، وبخارجها من جهة غربها كان قبل دخول العرب أرض إفريقية وإفسادهم لها ، فيه جنات وبساتين بسائر الثمار العجيبة

والفواكه الطيبة"[1].

هذا وقد ذهب البعض في تعليل بناء مدينتين متجاورتين إلى أن عبدالله المهدي إنما فعل ذلك لخشيته العامة والسوقة (نسبةً إلى السوق وهم أصحاب الحرف والصناعات والتجار) فنسبوا إليه أقوالاً تعكس هذا الخوف والخشية لديه[2]. ولكننا نحن اليوم نعرف أن هذا الأسلوب في إقامة المدن في القرون الوسطى كان شائعاً في أوروبا كما هو في الشمال الأفريقي وهو ميراث أسلوب الرومان في إقامة المدن : فالمدينة للسلطان وحاشيته وأعوانه وجنده ، وسكناها قاصر على هؤلاء، ثم الربض[3] وهو الضاحية ، وقد عرف في أوروبا بالبورقوس

---

(1) ـ الشريف الإدريسي : نزهة المشتاق ، ص282 ـ 283.

(2) ـ من الذين تعرضوا لهذا الأمر ياقوت الحموي في معجم البلدان، وذلك في كلا الموضعين: "زويلة" و"المهدية"، وفي الثاني منهما قال ما بعضه :"... فلما استقام ذلك أمر بعمارة مدينة أخرى إلى جانب المهدية ، وجعل بين المدينتين قدر طول ميدان (يعني استاديوم الرومانية وهي ذاتها رمية السهم في التعبير العربي)، وأفردها بسور وأبواب وحفظه وسماها "زويلة"، وأسكن أرباب الدكاكين من البزازين وغيرهم فيها بحرمهم (جمع حريم) وأهاليهم ، وقال: إنما فعلت ذلك لآمن غائلتهم ؛ وذلك أن أموالهم عندي وأهاليهم هناك، فإن أرادوني بكيدهم وهم بزويلة كانت أموالهم عندي فلا يمكنهم ذلك ، وإن أرادوني بكيدهم وهم بالمهدية خافوا على حرمهم هناك . وبنيت بيني وبينهم سوراً وأبواباً ، فأنا آمن منهم ليلاً ونهاراً لأني أفرّق بينهم وبين أموالهم ليلاً وبينهم وبين حرمهم نهاراً". ومما نُسب إلى المهدي في الأولى "زويلة" رده على من لفت نظره إلى أن رعيته في ذلك من عناء :"لكن أنا في راحة".

(3) ـ قال ياقوت في الربض : "الربض بالتحريك ، وآخره ضاد معجمة ، وهو في الأصل حريم الشيء . ويقال لزوجة الرجل رَبْضة ورُبْضة . قال أبو منصور : الربض فيما قاله بعضهم أساس المدينة والبناء ، والرَّبض حوله من خارج".

BORGOS[1] (ومنه تعبير البرقوازية[2] والبرغوازي[3]) والمستخدم للدلالة على تلك الفئة الوسطى التي لا ترقى إلى طبقة النبلاء (القصر والحاشية وأصحاب النفوذ الذين قبلوا في الطبقة لغير المال والثراء)، ولا تتواضع تواضع العامة من المزارعين والعمال وأصحاب الحرف . وهذه الطبقة البرقوازية مكوّنة في العادة من التجار وأصحاب الثروات وحسب . أما في العهد الروماني فقد كان الربض أي الحي التجاري يُعرف بالأمبوريوم EMPORIUM وهي السوق في اللاتينية .

وفي مدن العصر الإسلامي كانت بغداد ذات أرباض ، وقرطبة ذات أرباض ، وعلى هذا أغلب كبريات المدن[4] .

من هذا الذي قدّمناه يمكننا أن نستقرئ أن "زويلة" قد يكون معناها مدينة التجار ، أو حي التجار ، وعلى هذا فقد تكون "زيوالي"

---

(1) - تعريف البورقوس في القاموس (الإيطالي) أنه من أصل ألماني ، دخل اللاتينية ، ويعني مجموعة المباني الواقعة على الطريق (قرية) ودونما سور ، وعلى مجموعة المنازل الواقعة خارج السور.

(2) - في تعريف ذات القاموس : تلك الطبقة الوسطى التي كانت تنافس وتخاصم طبقة النبلاء في عهد الإقطاع ، ثم وقد نالت من النبلاء حلّت محلّهم في التعالي والتظاهر فعادتها وأكثرت من الغمز فيها طبقة العمال والأجراء من بعد ذلك .

(3) - نطقها على هذا الشكل فرنسي وهي في الإيطالية : البوقيزي Borghese وهو ساكن البورقوس من غير العسكر ومن غير رجال الكنيسة في العهد الإقطاعي ، ثم أصبح يدل (باحتقار) على ذلك الحضري المتأنق المترفع من غير الفئتين المذكورتين . ويُطلق في الإيطالية مجازاً على الملابس المدنية في مقابل تلك الرسمية والعسكرية ، فالبورقيزي هو المدني من الملابس والناس.

(4) - بقيت رواسب هذه الظاهرة إلى اليوم متمثلة في الأحياء في كل مدينة (راقية وشعبية)، وتعكس في مدينة طرابلس عبارة (ولد مدينة) وأيضاً (من قعر الخابية) هذا المفهوم القديم.

إحدى اشتقاقات مصطلح زويلة ، كذلك فإن باب زويلة بالقاهرة قد يعني باب السوق أو باب التجار أو باب حي التجار . فإن صحّ هذا ونحن نميل إليه فإن زويلة المهدية إنما تعني سوق المهدية أو ربض المهدية بلغة البربر في ذلك العهد ، كذلك فإن زويلة السودان أو زويلة فزان تعني سوق السودان أو سوق فزان ، ففي هذا نحتمل التعدد في التسميات التي للأماكن سواء هذه التي عرفناها حاملة لهذه التسمية أو غيرها لم تصل إلينا عنها أية معلومات[1] .

• ملوك بني خطاب:

نحن نعلم عن عهدها واسم المؤسس لها واسم آخر ملوكها ونهاية عهده ، إلاّ أننا لا نعلم من أمر ملوكها بين الأول والأخير شيئاً يساعدنا ويعيننا على معرفة شيء ذي بال عنهم ولا عن تاريخ فزان .

من الناحية النظرية ـ المحض نظرية ـ نجد التجاني يذكر لآخر ملوك بني خطاب سلسلة من الآباء تساوي عدداً تلك الأضرحة التي لاتزال باقية بزويلة لمن عُرفوا بسلاطين بني خطاب ، فعددهم سبعة ، وعدد الأضرحة سبعة ، ولكن من ناحية أخرى فإن العهد مداه

---

(1) ـ ونسبة الأماكن إلى السوق أو السوق إلى المكان أمر مألوف ، فطرابلس الإقليم سماها الرومان : السوق Emporiom واستغنوا بها عن طرابلس في إحدى معاهداتهم مع قرطاجنة في أواسط القرن الرابع قبل الميلاد (انظر تاريخ بوليبيوس)، وكان لطرابلس المدينة سوق الثلاثاء ثم هو حي (سوق الثلاث)، وفي منطقة الخمس كان هناك سوق في يوم الخميس ثم هو الآن مدينة (سوق الخميس) وهناك أمثلة أخرى مماثلة.

262 سنة قمرية ، وهذا يعطي فترة حكم طولها 38 سنة تقريباً في المتوسط ، وهذا منطقياً صعب التصديق والقبول .

بعد هذا ومعه فليس من الضروري أن يكون كل أب ملكاً أو سلطاناً كمن سبقه ومن تلاه ، فقد يكون منهم من لم يتوّل الحكم وإنما انتقل الملك من الجد إلى الحفيد ، بينما تولى السلطنة بينهما ابن عم للجد أو للوالد أو حتى منتهز غريب ، فهذا ما يطيل القائمة وينزل بمتوسط العهود.

أما ما لدينا عن المؤسس فهو عبد الله بن محمد بن خطاب ، فهو من استقرّ بزويلة بأهله وذويه ، وأما آخر سلاطين هذه الأسرة فهو محمود بن خطاب بن يزليتن (أو يصليتن) بن عبد الله بن صنعل بن خطاب [ابن عبدالله بن محمد بن خطاب][1] .

ولقد كان المفروض أن تأتي البحوث الأركيولوجية في العصر الحديث بما يلقي ضوءاً ولو خافتاً يبدد ظلمات القرون والأعوام ، ولكن فلا القصر ولا المسجد ولا مقابر السلاطين السبعة ولا غيرها حظيت باهتمامات الدارسين ، ولسبب بسيط فهي آثار إسلامية وبالتالي فلا

---

(1) - نجد في رواية هذه السلسلة خلافاً بين المصادر التي في أيدينا ، وقد وردت في رحلة التجاني (وعند ابن خلدون) على الشكل التالي : محمد بن خطاب بن عبدالله بن زنقل بن خطاب (راجع رحلة التجاني ، تحقيق حسن حسني عبدالوهاب ، المطبعة الرسمية ، تونس ، 1958م، ص112 . 113). وراجع أيضاً :

Ettore Rossi : La Cronaca Araba Tripogina Di lbn Galbun (Sec. XVIII) Bologna, 36, P. 56+ (N3).

وحول صنعل (عند من ذكرنا زنقل) لعله تركيب من "صنع الله"، وفي الليبيين من يُعرف بهذا "صنع الله".

تهم العالم الأوروبي الذي يبحث عن شواهد لتاريخ الرومان .

أما الدينار الذهبي الوحيد الذي عُثر عليه وكتب عنه[1] فإنه ورغم أنه ضُرب في زويلة سنة 414هـ(1023 ـ 1024م) فإننا نشك في أنها زويلة فزان لأنه دينار فاطمي (أبي الحسن الإمام الظاهر لإعزاز دين الله) ولن يضرب سلطان أباضي المذهب عملة فاطمية تأكيداً ، ولذا فإننا نحتمل أنها زويلة الأخرى ، زويلة المهدية ولا يعني العثور عليه بهذه شيئاً ذلك أن المدينة الصحراوية ميدان للتبادل التجاري مفتوحة للجميع[2] .

إن عهداً يستمر لأكثر من 260 سنة لا يعقل أن يمر دون أن يترك أثراً مادياً وراءه ولا ذكرى من أي نوع ، ولكن هذا حدث ، وعهد ملوك بني خطاب محته الأيام ويد الإنسان وإهمال التدوين والرغبة في نسيانه ، فقد كان أباضياً ولكنه هواري ، والسنة قد حلّت محله في فزان وبين هوارة ، والأباضية الباقية في نفوسة ، وهؤلاء أشد عدواناً وعداءً لهوارة من العرب والسنة معاً . وقد سبقت لنا إشارة حول هذا الموضوع أو شيء منه عند تعرّضنا للحديث عن كتاب الأباضية في موكب التاريخ وتعمد مؤلفه إغفال دور هوارة السياسي ـ العلمي في

(1) ـ M. Mostafa, Islamic Objects of Art. In: Libya Antiqua, Vol.II, PP.123–127. (Plate LIII & Bis)

(2) ـ هذا مخالف لما ذهب إليه محمد سليمان أيوب في كتابه مختصر تاريخ فزان ، ص90 ، الذي لم ينتبه إلى أن الظاهر الفاطمي لا سلطان له مطلقاً على فزان ، وأن أسرة بني خطاب أباضية المذهب، وأن هناك زويلة أخرى هي الفاطمية ، فقال بدار لسك النقود في زويلة بني خطاب.

الكتاب ، وفي هذا بعض دليل ، وهوارة ذاتها لم تتخلَّ عن أباضيتها لتصبح سنية المذهب لتعرّضها لدعوة الدعاة من علمائها ونجاحهم معها ، وإنما - وفي اعتقادنا - لما كان بين نفوسة وهوارة قبلياً من تنافر ونفور وصراع ليس هذا معرض الحديث عنه وفيه ، إلاَّ أن السبب الأوضح فيما نراه كامن في طبيعة حكم هذه الدولة واهتمامات ملوكها ، فالعناية الأولى كانت بالتجارة لا العمران ولا الثقافة ، والتاجر قد يترك ثروة طائلة ولكن قلّما يترك ما تبقيه السنون والأيام، وقد قال شيئاً من ذلك محمد سليمان أيوب في مختصره عن تاريخ فزان :"وهذه الأسرة أصلها من البربر الهواريين ، ولا نعرف عنهم مع الأسف الشديد سوى النزر اليسير ، وتصفهم الرواية (أية رواية ؟ أهي الشعبية؟) بأنهم كانوا من التجار الأثرياء الذين كانوا يمتلكون قوافل كبيرة من الجمال"(1) .

ولكن التاجر متى وجد نفسه مسؤولاً انصرف إلى العناية بما يضمن سلامة الطريق ويحمي المال بحماية القافلة ورجالها عبره ، حمايته لمقر إقامته (مدينته) ومراكز نشاطه ، وهذا ما فعله ملوك زويلة من بني خطاب ولا شك ، وحتى إذا كانت الإشارات إلى هذا تنقصنا في المدون ، فإن الإشارات إلى هذه الحصون المقامة لحماية الطرق الرئيسية والدروب لا تنقصنا وإنما هي نسبتها إلى هذه الدولة أو غيرها ممن سبقت أو أعقبت دولة بني خطاب هو ما تحوم حولها شكوك الدارسين.

---

(1) - محمد سليمان أيوب : مختصر تاريخ فزان ، ص89 - 90.

• نهاية عهدهم في فزان:

لن نذهب مذهب التبسيط في وصف نهاية عهد آخر ملوك بني الخطاب على الشكل الذي رواه التجاني في رحلته وحسب ، ولن نذهب كذلك مذهب التحليل والتعليل وربط النتائج بأسبابها والأسباب بالمسببات ، ففي المذهب إخلال واقتضاب ، وفي المذهب إطالة وإطناب لا نشعر بضرورته في هذا البحث ، ولهذا فسنذهب مذهباً وسطاً بمعنى أننا سنوجز ونميل في الإتيان بالأسباب والمسببات ، وسنبسط القول في الكيفية التي انتهى بها هذا العهد.

أ - مسببات وأسباب الاضمحلال:

ليس في إمكاننا بالطبع تخمين الفترة التي بدأ فيها الضعف الاقتصادي - والاقتصاد قوة هذه الدويلة - يدب في أوصالها إلاّ أن فترة الاختناق كانت مبكرة نسبياً ، ربما على إثر دخول العرب إلى إفريقية في موجة نزوحهم إليها أواسط القرن الحادي عشر للميلاد ، أي قبل أكثر من قرن كامل من الزمان من نهاية عهد آخر ملك لهم . فقد نتج عن هذا اختلال في التوازن واضطراب في الأمن وانقطاع في دروب الاتصال ، وبالتالي فقدان الأسواق لتصريف البضائع ما بين الشمال والجنوب . فإن صح هذا التصور كانت هجرة العرب من بني هلال وسليم مسبباً وسبباً في اضمحلال دولة بني خطاب .

والكل يعرف أن دخول العرب للشمال الإفريقي في موجات

كاسحة لم يكن بإرادة ذاتية من تلك القبائل وإنما كانت بإيعاز ودفع من قبل الخليفة الفاطمي في القاهرة انتقاماً من عامله على إفريقية المعز بن باديس الذي ترك الشيعة والتشيع إلى مذهب أهل السنّة وأعلن ولاءه وبيعته للخليفة العباسي في بغداد ، وهذا معناه أن ما حدث بالمغرب كان ثورة سنّة شملت جميع العشائر والقبائل والمدن والأرياف، ولعلّ في تلك الفترة أو ربما قبل ذلك ، كان تحوّل هوارة (أو الباقي منها على أباضيته) إلى المذهب السنّي ، وهذا يعني ومن حيث بحثنا هنا انغلاق الجبل الغربي الأباضي قبل أن يدخله العرب على التاجر الزويلي، وهذا قد يكون مسبباً وسبباً آخرَ في ضعف سلطنة بني خطاب.

وليس في إمكاننا وبما تحت أيدينا من مصادر ومراجع أن نقول شيئاً يذكر مما يمكن أن نرى فيه مسبباً أو سبباً لضعف حكومة بني خطاب في أواخر عهدها إلاّ أن ما حدث بعد ذلك من امتداد كانم بنفوذ سلاطينها ومماياتهم إلى فزان ، وسيطرتهم عليها يحمل على الظن بأن تطوراً ما قد حدث بتلك الجهات ولغير صالح دولة بني خطاب.

وفي عمل آخر لنا (لم يُنشر بعد)[1] عقدنا فصلاً بل وأكثر من فصل عن ظاهرة عالمية تمثلت في الصراع المرير بين الحضارة والبداوة، وعن انتصار الريف على المدينة ، وقلنا فيه أن نزوح العرب إلى الشمال الإفريقي كان جزءاً لا يتجزأ من الظاهرة العالمية التي تعرضت لها

(1) ـ الجزء الثاني من "سكان ليبيا في التاريخ".

الأمم والشعوب المحيطة مواطنها بحوض المتوسط خلال النصف الثاني من الألف الأولى والنصف الأول من القرن الثاني للميلاد ، ولم يكن لا بالظاهرة الوحيدة ولا بالمنعزلة ، اللهم إلاّ إذا نحن أخذناها بصورة منفردة وبحثناها على هذا الأساس ، وحتى في هذه الحالة فهي إنما جاءت ردة فعل لموجة نزوح اكتسحت المشرق العربي من مغربه في ركاب الدعوة الفاطمية (كتامة ـ صنهاجة ـ لمتونة ـ ...إلخ) قبل ذلك بحوالي القرن من الزمان.

في هذا الإطار ، وضمن مفهوم التدافع هذا نجد الجنوب الصحراوي يتحرك هو الآخر ، فتزحف جماعات منه يستقر بعضها في سرت القديمة[1] ونجد لملوك كانم امتداداً بنفوذهم حتى ودان وسيطرة على فزان التي حكموها بمايات (جمع ماي) من الحاضرة تراغن بعد أن تم القضاء على آخر ملوك بني خطاب سنة 568هـ ، وعلى ما ذكره التجاني في رحلته .

بعد توطئة تاريخية عُرّف فيها بقراقوش الأرمني وعلاقته

---

(1) ـ وهي غير سرت الحديثة التي لم تُؤسس إلاّ من قِبَل الأتراك العثمانيين في عهدهم الثاني (راجع سنة 1258 للهجرة من كتابي "بنغازي متصرفليك" الجزء الثالث)، أما سرت القديمة فقد حدد مراقب الآثار في برقة موقعها ، بل وكشف عن بعض ركام آثارها على بعد 55 كيلومتراً إلى الشرق من الحالية . (راجع حولية ليبيا القديمة ، العدد الأول ، ص10 ـ 11 من الملخصات ، وص99 من القسم الأجنبي وما بعدها). وقد ذكر البكري أن من بها يتكلمون بلسان لا هو بعربي ولا هو ببربري (هل هو إفريقي؟) يسمي أهلها بعبيد قرلة والعبد في مفهوم أهل البلد تعني السوداني جنساً ، وعلى هذا اعتمدنا في القول بأن المد الاستيطاني شمالاً من الجنوب قد بلغ سرت على شاطئ البحر المالح.

بصلاح الدين الأيوبي وبسبب خروجه قال :"... فرَّ بطائفة منهم [جند المظفر تقي الدين] مملوكه قراقوش الأرمني ، وبطائفة أخرى منهم إبراهيم بن قراتكين سلاح دار المعظمي ، وهو منسوب إلى الملك المعظم شمس الدولة أخي صلاح الدين ، وكان في أجناد تقي الدين - فجاز المذكوران بمن معهما إلى المغرب ، ولما جاوزا العقبة رأيا أن يفترقا لينفرد كل واحد منهما بما قدر له من الملك والرئاسة ، فسار قراقوش إلى سنترية فافتتحها ، وخطب فيها للسلطان صلاح الدين ولأستاذه تقي الدين بعده ، وكتب إليهما بذلك ، وافتتح زلة وأوجلة ، وأزال من بلاد فزان دولة (بني خطاب) الهواريين ، وكانت قاعدة ملكهم زويلة ، وهي المعروفة بزويلة بني الخطاب وعذّب ملكها محمد بن خطاب بن عبدالله بن زنقل بن خطاب ، آخر ملوكهم على المال حتى هلك ، وخطب فيها لصلاح الدين ، ولتقي الدين"[1].

هكذا وبوفاة محمد بن خطاب تحت التعذيب بغية الحصول منه على المال (خزينة الدولة) انتهى عهد هذه الدولة وأفل معها نجم زويلة كحاضرة لفزان ، وكان هذا قد حدث سنة 568 أو أوائل السنة التي تليها عند البعض ، وكلا الأمرين سيان.

(1) - التجاني ، الرحلة ، ص112 - 113.

أسرة أولاد امْحِمَّد

• تقديم :

تحدّث أنريكو دي أغستيني في كتابه سكان طرابلس عن هذه الأسرة فجعلها من الأحرار[1] بين سكان واحة مرزك[2]، ولم يزد في ملاحظاته عنها على قوله :" بقايا أسرة بذات الاسم كانت تحكم فزان"[3]. وبالفعل فإن أسرة محمد الشريف الفاسي (أو أسرة أولاد امحمد) هذه التي حكمت فزان لثلاثة قرون لهي أول أسرة عربية خالصة حكمت في تاريخ ليبيا في العصر الحديث[4]. فهي قد سبقت

---

(1) ـ الأحرار (أو الحرار) لا يقصد بمن تطلق عليهم هذه الصفة عكس "رقيق" كما قد يتبادر إلى الذهن من مدلول ذات اللفظ ، فهي تدل على من كانت أمه من ذات عشيرة أبيه أو من ذات القوم على الأقل ، وقد وقع دي أغستيني في ذات المزلق حينما جعل سكان الواحة غير الحرار من المماليك.

(2) ـ يكتبها البعض (مرزق) بالقاف ، ومن هؤلاء ابن غلبون ، وقد لاحظ إيتوري روسي في ترجمته للتذكار (ص75 هـ10) معلقاً أن هذا هو نطق الفزانيين لها ، بينما بالكاف ينطقها الأتراك والأوروبيون ، وليس هذا في نظرنا بالصحيح إذ إننا نجد النسبة إليها مرزكاوي بالكاف لا مرزقاوي بالقاف .

(3) ـ Enrico De Aqostini: Le Popazioni della Tripolitania Tripoli, 1917. pag. 365.
ولهذا الكتاب ترجمة إلى العربية بقلم محمد التليسي وبنفس العنوان "سكان طرابلس الغرب".

(4) ـ أخذنا هنا بالتقسيم الثلاثي لعصور التاريخ :(قديم ـ وسيط ـ حديث) إلاّ أننا سلكنا في تحديدها غير ما درج الغرب الأوروبي عليه ، فلم نأخذ زمناً بتحول العاصمة الرومانية إلى القسطنطينية ونهاية روما نهاية للعصور القديمة وبداية للعصور الوسطى ، وسقوطها =

وجوداً وعهداً نشأة الأسرة القرمانلية بقرنين من الزمان أو حوالي ذلك[1]. وهي قد استمرت ـ وإن بين مدٍّ وجزر ـ تحكم فزان حتى قضى "محمد المكني" قائد حملة يوسف باشا القرمانلي على آخر سلاطينها "محمد الشريف" في سنة 1227هـ (1882م)[2].

هذه الأسرة ـ ورغم أصالتها العربية ـ الليبية ـ لم تنصف من كتاب تاريخنا الحديث ، ولم ينظر إليها بما هي جديرة به ، بل ـ وعلى العكس ـ أهمل شأنها فيما كتب الليبي من أبناء الشمال (ابن غلبون والنائب)، لا لأنهما كانا يكتبان في عهدين كان جل همهما أن لا يسلط الضوء على ليبي أصيل أي دور قيادي كهذا وحسب ، وإنما ـ ومع حسن النية ـ كانا معاً ظاهري التحيز للشمال على الجنوب ، ولطرابلس على بقية القطر ، وبالتالي فلم يسهب أيهما ولا فصّل في

= في يد الأتراك العثمانيين نهاية الوسطى وبداية للحديثة ، وإنما اتخذنا من انبثاق الإسلام ونشأة الخلافة نهاية للقديمة وبداية للوسطى ، ومن انتقال الخلافة من يد العرب إلى يد الأتراك نهاية للوسطى وبداية للحديثة ، وهكذا ، ومن هذا المنطلق فإن العصور الوسطى في التاريخ العربي تمثل الهداية والنور والمجد والحضارة على عكس ما تمثله الوسطى في المفهوم الغربي من عصور ظلمة وتأخر وانحطاط

(1) ـ أول خبر في التاريخ عن سلاطين هذه الأسرة نجده عند ابن غلبون في التذكار ، وقد أعاده إلى سنة 956هـ (1549م) في رواية استبعدها وإلى سنة 985هـ (1577م) في ثانية أكدها وهو يتعلق بالثالث من رجالها (المنتصر)، وهذا يعود بأصلها ومؤسسها إلى بدايات القرن السادس عشر للميلاد على ما سيأتي ، بينما لم يصل أحمد باشا القرمانلي إلى الحكم إلاّ سنة 1711م ، على ما هو معروف وثابت في التاريخ .

(2) ـ أحمد النائب : المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ، ص218 ـ 219 من طبعة دار الفرجاني ، (د.ت).

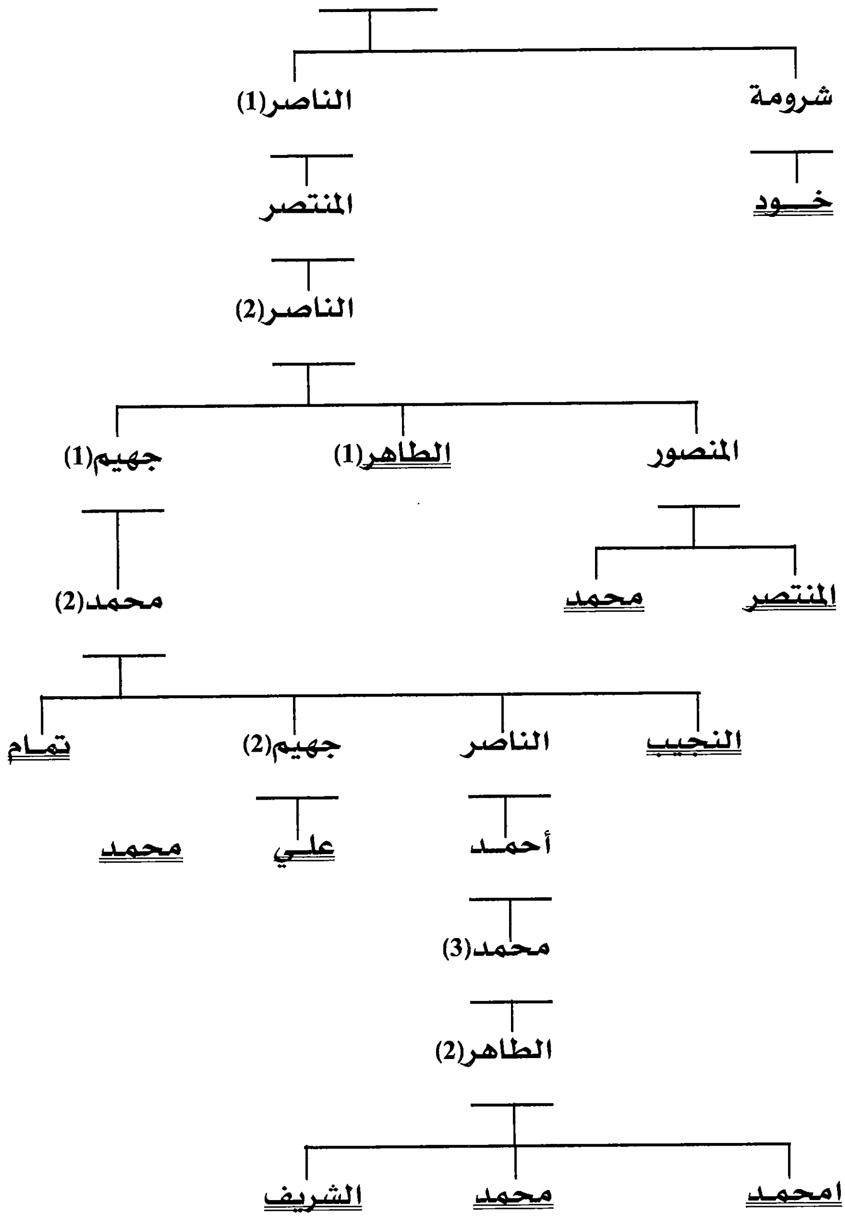
رواية الأحداث المتعلقة بهذه الأسرة ، مكتفياً بالحديث العارض والإشارة المقتضبة إلاّ حيث للأتراك وقواد حملاتهم العسكرية دور يحرصون على إبراز ظلاله فيما يكتبون .

ولم يكن تاريخ فزان بالجاذب للباحث الإيطالي إلاّ فيما يتعلق منه بموضوعين : مكتشفات ما قبل التاريخ ، وحملات الرومان التي ورد ذكرها في المصادر القديمة ، وهذا بالطبع إلى جانب التاريخ المعاصر (الاحتلال وما تلاه). وليس في هذا ما يتعلق بالفترة التي كان "أولاد امحمد" فيها هم ملوك فزان[1]، وما هذا إلاّ لأن صلات أوروبا (وهي ما يهم باحثيها) بفزان وبالتالي بالأسرة الحاكمة له ، كانت معدومة على عكس علاقة أوروبا بالأسرة القرمانلية التي كانت سياسياً واقتصادياً على صلة متصلة ومتداخلة بتاريخ أوروبا وحكوماتها آنذاك[2].

(1) - ر ينفي هذا بالطبع مقالة سيارة أو بحثاً خاصاً نُشر في هذه المجلة أو تلك وبمناسبة أو بلا مناسبة كان الدافع إليها ذاتياً والحاث عليها اهتمام آني ، كما لا ينفي ورود فصل أو فقرات مفرقة متناثرة من كتاب . ولكن ما من عمل واحد جدير بأن يثير اهتماماً أو يستلفت نظرنا باستثناء فصل واحد من كتاب : فزان وواحة غات (في الإيطالية) وهو جهد بذل بتكليف رسمي وكمساهمة في عمل جماعي ، وكان عرضاً عادياً لم يتعمد صاحبه تعميق دراسته وبحث مادته كعمل خاص.

(2) - ينعكس هذا فيما قام به العديد من الباحثين والمؤرخين في كتبهم التي تعد بالعشرات ، وبحوثهم التي تتناول جانباً أو جوانب من التاريخ وهي تعد بالمئات ، الأمر الذي جعل الإلمام بالأسرة القرمانلية وحياة رجالاتها تاماً على الأقل فيما يتعلق منه بالصلات ما بين طرابلس وأوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد.

محمد الفاسي
(امحمد)



من هنا ، ولهذا ، كانت عنايتنا بتقديم هذه الدراسة التحليلية عن تراجم رجالات هذه الأسرة وشيئاً من إسهامهم في تاريخ فزان ، مع الأخذ بعين الاعتبار أنها بداية لعمل لا يزال مفتقراً إلى عمق أكثر ومعلومات أكثر ليكتسب صفة العمل المقبول ، ومعنى هذا أننا تحركنا في حدود ما سمحت به مصادرنا من معلومات ، وهو غير كافٍ لكي يكون الرأي جزماً والاحتمال مرجحاً إلاَّ في حدود وقناعة الكاتب وحسب ، شأن كل بحث بكر من هذا القبيل .

• حول الاسم والأصل :

المعروف تاريخاً أن "محمد الفاسي" هو رأس هذه الأسرة وجدها الأعلى ، فقد أورده ابن غلبون في التذكار بهذا الاسم العلم "محمد" عند الحديث عن حفيده المنتصر بن الناصر وعن حفيدته خود بنت شرومة[1]. والمعروف حاضراً أن سلالته اليوم يُعرفون بـ:"أولاد امحمد"[2].

ولا يملك الباحث أمام هذا إلاَّ التساؤل عن أي العلمين كان

---

(1) - ابن غلبون : التذكار ، (ط/2)، ص137 ، ص143. ونلحظ أن الجميع بعده كانوا في الحقيقة عالة عليه أي أنه كان لهذا هو المصدر الوحيد.

(2) - وقد سمى محمد سليمان أيوب هذه الأسرة التي حكمت فزان في كتابه "مختصر تاريخ فزان" بـ:"أسرة أولاد امْحمَّد"، ولكنه تحدث عن الأصل الأول لها باسم :"محمد" ملتزماً بالمصدر حيناً وبالمتواتر الحين الآخر ، فقد كان يوم تأليفه كتابه مفتشاً للآثار بفزان ، وبالتالي فقد فرض الواقع نفسه عليه .

للرجل : أهو "محمد؟ أم هو "امحمد" ؟ .. والذي نميل نحن إلى اعتقاده والأخذ به هو أن الأصل فيه هو الثاني "امحمد" بسكون الميم وليس "محمد" بتحريكها مادام الموروث المتواتر وعبر الزمن ولأجيال من بنيه وعامة الناس هو "امحمد"، وهو غير محمد كاسم علم في الليبيين . غير أن كتاب العرب ـ وفيما يبدو ـ كانوا يعيدون كل "امحمد" في الأعلام إلى "محمد" التزاماً منهم بالقاعدة العامة (العرب لا يبدأون بساكن ولا يقفون على متحرك)، إلى جانب التقليد الشائع بين من يكتب من العرب قديماً وحديثاً والذي يعيد كل لفظ يعترض طريقهم في أية لهجة محلية إلى أصله العربي كتابةً ورسماً هروباً وتحوّطاً من الإسفاف اللهم إلاّ في القليل جداً من الحالات .

وابن غلبون على هذا فإنه وحين رسم اسم الفاسي "محمد"، لم يكن يجهل نطقه في فزان وبين أولاده "امحمد" إلاّ أنه وكغيره من سائر من سبقوه جارى في تحريك أوله الساكن واتبع القاعدة والأسلوب ، ولم يأتِ إدّاً ، ولكن وفي هذه الحالة فإن هذا التصرف إرباك لنا قد يجر إلى خطأ من اثنين : الأول أن لا نعتبر هؤلاء سلالة ذاك ، وفي هذا فصل خاطئ ما بين أصل وفرع . والثاني أن هناك أكثر من بيت و(لحمة = عائلة) وفخذ يُعرفون بأولاد محمد ، وليس لأي منهم علاقة نسب بهذا الأصل الفاسي ولا رابط لهم بنسله ، من هنا نجد أن قراءتنا لابن غلبون (وهو مصدر الرواية الأول) يجب أن تكون "امحمد" كما هي في الأصل أو على الأقل بتحريك أول وثاني الاسم بالكسر مِحِمَّدْ (ولعله كان هو ذاته قد اتّجه هذا الاتجاه الأخير) . ولا يجب أن نغفل حقيقة

أن "محمد" علم و"امحمد" علم آخر سواء في بلادنا وربما في سائر الشمال الإفريقي ، وعلى هذا فقد يحملهما أخان شقيقان يعيشان معاً وتحت ذات السَّقف (وفي ذات أسرتي من أجدادي من سُمّي بمحمد وأخوه بامحمد وأعرف في غيرها أيضاً أكثر من مثال).

وقد أعاد ابن غلبون محمد هذا إلى فاس ، وهي إذ ذاك إحدى عواصم المغرب الأقصى ، مما يعني أنه مهاجر لسبب منها ومستقر بفزان ، وهو في أصله من الأشراف ، وبالتالي فهو عربي قريشي هاشمي. مثال حي للتلاحم والانصهار المجسد لوحدة العروبة والإسلام ، وليس في هذا غرابة ، فعلى شاكلته غالبية أبناء الوطن العربي حتى بدايات القرن الماضي وقيام الحدود ومنع التنقل والتوطن إلاَّ بجواز سفر وتأشيرات إقامة ومرور ، وفي أصول القبائل الليبية أو بطونها أو أفخاذها عدد غير قليل ينتمي إلى أصول من المشرق أو من المغرب كأولاد امحمد هؤلاء .

ونخلص مما تقدم إلى أن الصواب في اسم الرجل أنه امحمد أو محمد بكسر الميم والحاء ، وأن مقدمه إلى فزان من فاس وأنه في الأصل من الأشراف .

- **الجد ومن هو :**

ومحاولة التعرف على محمد الفاسي هذا وتعيين شخصه في التاريخ وشيء من حياته قضية تستثير اهتمام الدارس وتدفع به للبحث والتحري في هذا الاتجاه وتستدعي إجابة على : من هو محمد

الفاسي هذا ؟ وهل في الإمكان الوقوف على شيء من أمره في التاريخ؟ وعلى الرغم من أن هذه مسألة ليست بالسهلة فقد حاولنا ذلك انطلاقاً من ثلاث نقاط هي كل ما لدينا عنه : الاسم (محمد) والموطن (فاس) والأصل (شريف)، وإضافة إليها تحديد الفترة الزمنية التي عاش فيها بأنها تسبق سنة 1577م بأربعة أجيال ، أو بحوالي القرن من الزمان ، وبصورة فضفاضة نحصرها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر.

وفي هذا البحث كان الزركلي وكتابه (الأعلام) أكبر مساعد لنا وعون لجهوده المبذولة في الحصر والتبويب ووفرة المصادر ، ولم نعثر بين من ترجم لهم باسم "محمد"[1]، وقد قارب عددهم الثلاثة الآلاف[2] ممن تجتمع هذه الأربعة فيه غير اثنين فقط يحتمل أن يكون أحدهما هو من نبحث عنه :

1 ـ محمد بن علي الإدريسي الجوطي العمراني وشهرته : "الشريف الحفيد".

2 ـ أبو عبدالله محمد بن علي بن سعد ... النصري آخر ملوك غرناطة من بني الأحمر .

---

(1) ـ ونلفت النظر إلى أن الزركلي أيضاً لم يفرق بين محمد وامحمد في قاموسه ولم يأتِ بواحد فقط من ساكن الميم الأولى ، ولا أشار إلى ما يفيد هذا فيما كتب ، وبالتالي فإن امحمد ومحمد معاً عنده (كما عند سائر الآخرين) يردان في محمد وحسب.

(2) ـ وقد شغلت تراجم من اسمه محمد من قاموس الأعلام سائر المجلد السادس وبعض الخامس ومعظم السابع من مجلداته الثمانية (ط/4).

ونستبعد هذا الثاني لأنه استقرّ بفاس وبها عقبه على ما ذكره المقّري في (نفح الطيب) عنه. أما عن الأول وهو "الشريف الحفيد" فقد جاء في (الأعلام) عنه استناداً إلى (الاستقصا) و(الضوء اللامع) ما يُستفاد منه أنه كان سلطاناً على فاس حتى خُلع سنة 875هـ (1470 ـ 1471م) وأنه قد ارتحل منها إلى تونس بعد ذلك بقليل ، وهناك سكت التاريخ عنه . ونحتمل نحن ـ ولا نجزم ـ بأن هذا "الشريف الحفيد" هو ذاته محمد (أو امحمد) الفاسي ، والد الناصر وشرومة وجد المنتصر وخود ، ورأس أسرة أولاد امحمد التي ملكت فزان : فالاسم محمد والموطن فاس والنسب من الأشراف والعهد النصف الثاني من القرن الخامس عشر للميلاد ، والتاريخ يسكت عنه بعد سكناه تونس لاجئاً ، وعلى هذا فليس بمستبعد أن يكون صمت التاريخ عنه لانقطاع أخباره بعد أن ترك تونس إلى فزان ومجاهل الصحراء ، حيث المعلومات نزرة والراوي لأخبار أهلها بين العلماء جد قليل.

إذا صحّ هذا الفرض احتمالاً ، وقيل ممكناً ، ونحن ميالون إلى التسليم به ، فإن هذا الرجل إنما كان سلطاناً فَقَدَ ما يملك في فاس فاستعاض عنه بما أسس من سلطنة بديلة في فزان. وننقل هنا ما ورد في (الأعلام) من ترجمة له : "الشريف الحفيد": محمد بن علي الإدريسي الجوطي العمراني ، من بيت بني عمران ، أبو عبدالله : من سلاطين المغرب الأقصى . كانت أيامه عهد الانتقال بين الدولة المرينية والدولة الوطاسية وهو من أهل فاس ، أصله من قرية "الجوطة" كانت على نهر "سبوا" في العدوة الجنوبية. وكان بنو عمران بفاس

أوضح الأدارسة نسباً ، فلما ضعف أمر بني عبدالحق المرينيين ، وأقدم آخرهم عبدالحق بن عثمان على تولية اثنين من اليهود وزارته ، ثار عليه أهل فاس فقتلوه وبايعوا للشريف الحفيد (صاحب الترجمة) وكان يومئذ نقيب الأشراف بفاس (سنة 869هـ) [1464 ـ 1465م] فاستوزر أحد أبنائه. واستمرّ إماماً وسلطاناً إلى أن هاجمه محمد الشيخ الوطاسي فدافع زمناً ، ثم استسلم وخلع (سنة 875هـ) فأقام قليلاً ورحل إلى تونس"[1]. عند هذا الحد تقف ترجمة الرجل في الأعلام ، لا حياة صاحب الترجمة التي احتملنا ـ فرضاً ـ أنها قد استمرت بدخول صاحبها في طور جديد انتهت به إلى تكوين أسرته الفاسية في مرزك التي جعل منها عاصمة للإقليم.

إلاّ أن ما بين انتهاء محمد الفاسي "الشريف الحفيد" إلى تونس بعد سنة 875هـ بقليل ، ربما في حوالي سنة 1473م، وبين سنة 985هـ (1577 ـ 1578م) التي أعاد إليها ابن غلبون استنجاد "خود" على زوجها بالأتراك في المرجح عنده من روايتين ، ما يزيد قليلاً عن القرن الكامل من الزمان ، وهي فترة ليست بالتي يمكن التغاضي عنها أو التقليل من شأنها ، ولكن يجب أن لا ننسى أن خود حفيدته تقدمت بها السن آنذاك فهي زوجة أولى لابن عمها المنتصر الذي هو بدوره حفيد لهذا الرجل ، وهو إذ ذاك ليس بالحدث الصغير ، فقد تزوج من غير خود وأنجب ، وابنه بدوره قد بلغ مبلغ الرجال وقد خلف في تلك السنة أباه

(1) ـ خير الدين الزركلي : الأعلام ، السادس ، ص288. وهو عن الناصري السلاوي : الاستقصا ، الثاني ، ص158. وعن السخاوي : الضوء اللامع ، الرابع ، ص37.

على ما سيأتي من أمره ، فهو إذن الجيل الثالث من نسل هذا الجد الأول للأسرة ، والمؤرخون يقبلون إجماعاً بإعطاء متوسط عام للجيل الواحد يتراوح من بين 25 و30 سنة من الزمن ، وهذا يصل بنا إلى ذات التاريخ الذي ذكر ابن غلبون فحمد الفاسي قد أنجب الناصر وهذا خلّف المنتصر ، وللمنتصر ولد الناصر الثاني فهم أربعة أجيال به وثلاثة بعده على اليقين.

ولا نعلم من مدون التاريخ شيئاً عن حياة محمد الشريف الحفيد ـ إن كان هو ذاته محمد الشريف الفاسي رأس أسرة "أولاد امحمد" التي حكمت فزان ـ إلاّ أننا نعلم مما جاء به البحاثة الأثري محمد سليمان أيوب في كتابه مختصر تاريخ فزان (ص104 ـ 105) عن الرجل من روايات شعبية متواترة قدمها بتصرف أن بعض ذوي النفوذ من أهل الإقليم قد طلبوا إليه أن يكون سلطاناً على فزان ، فمانع في البداية ثم قبل بذلك واستقرّ بمرزك (مرزق) من فزان ، واستنتج من معطيات التاريخ عنده أن يكون تاريخ بداية أمره سلطاناً هو سنة 1550م أو حوالي ذلك ؛ ولا نقبل نحن هنا بهذا التحديد ونرجع إلى ما قبله بما يغطي عهد أربعة أجيال به ، أو ثلاثة بعده وهو القرن في مفهوم المؤرخين ، فنعيد بدء أمر امحمد الشريف الفاسي في فزان إلى حوالي سنة 1470 ـ 1480م، فنوحد بهذا بين الشخصيتين عهداً على الأقل وننتهي إلى احتمال أن يكون هذا هو ذاك.

• الناصر بن محمد وشرومة أخوه :

من رواية ابن غلبون أن الناصر[1] والد المنتصر، وشرومة[2] والد خود كلاهما ابن لمحمد الفاسي، ولم يذكر له غير هذين من الأبناء. وفي الرواية التي قدّمناها عنه في (الأعلام) إشارة إلى أن للرجل أبناء من كان في فاس، وأنه استوزر أحدهم حين بويع بالسلطنة، ولم يعين عددهم فيها، فهل كان الناصر وشرومة (أو اشرومة) هذان من أبناء الرجل هاجرا معه حين ترك فاس؟ أم هما ولدا له من زوجة أخرى بنى بها في تونس أو في فزان؟[3]. أغلب الظن أنهما من زواج متأخر تمّ بعد

---

(1) - لم يذكره المصدر بغير هذا، ولا نعتقد أنه اسمه الأول، وإنما هو لقبه السلطاني الذي تلقّب به، فقد كانت عادة سلاطين العرب في المغرب أن يحملوا أسماء كهذا حين توليهم الأمر، ولعل ابن غلبون قد أغفل (أو جهل) ما يتعلق به قد اكتفى باللقب السلطاني وأغفل الاسم العلم الذي كان له اختصاراً واقتضاباً في الرواية وحسب.

(2) - هذه التسمية وبهذا الرسم تبدو لنا غريبة وغير ذات مدلول علاوةً على أنها أقرب إلى أن تكون صفة للرجل منها اسمه العلم، وبالعودة إلى قواميس اللغة وجدنا : شرم الشيء يشرمه شرماً : شقّه ؛ وأنفه : قطع أرنبته ؛ وشرم لفلان من ماله : أعطاه قليلاً ...إلخ. وشرومة من "شرم" اشتقاق غريب، إلاّ أنه قد يكون صفة تصغير لأشرم، فإن كان كذلك فهو "اشرومة" ساكن الشين التي حركت كما في "امحمد" (راجع ما سبق)، فهذه إحدى صيغ التصغير المحبب في اللهجات المحلية الليبية على الأقل، مثال ذلك : اسلومة في سالم، اخدوجة وافطومة في خديجة وفاطمة، واكرومة واقدورة واعلومة في كريم وقادر وعالم أو عليم ...إلخ. ولعلّ شرومة هذا كان به شرم في أرنبة أنفه استحقّ بها هذا النعت كما قيل الأشلم فيمن شقّ شاربه، فإن صحّ هذا فإن رواية ابن خلدون لم تأتِ على اسمه هو الآخر وإنما بما اشتهر به كأخيه الناصر وحسب.

(3) - عادة شائعة بين أبناء المغرب الأقصى ألاّ يصحبوا زوجاتهم وأبناءهم في سفراتهم =

استقراره في موطنه الجديد[1].

ولا نعلم علم اليقين من رواية ابن غلبون أن الناصر بالذات هو من خَلَف أبه كسلطان على الإقليم ولا أنه قد نافس أخاه ونازعه على خلافة الأب حتى انتزعه منه وانفرد دونه به ، ذلك أننا ليس لنا من العلم إلاّ ما قد استقرأناه من الأحداث التالية المعروفة لنا من مصدرها التذكار ، وهذه تجعلنا في تردد وإحجام عن الجزم والترجيح لأسباب سترد في أثناء التعرض لبحث هذا الأمور .

ولقد أنجب الناصر الأول ابناً هو "المنتصر" وأنجب شرومة بنتاً هي "خود"، وقد زوجت هذه من ابن عمها ولم تُرزق منه بغير بنت ، وتزوج المنتصر من إحدى بنات مرزك فرزق منها بعدد من الأبناء الذكور وقضى الناصر قبل أخيه وعمر هذا حتى أواخر عهد الابن ومات قبله بيومين أو ثلاثة ، ولم تعمر ابنته بعده طويلاً فقد قضى عليها طموحها ، والطموح قتال ، وانتهى بهذا أحد فرعي الفاسي واستمرّ في الفرع الثاني وكان من سلالة المرزكاوية ضرة خود.

= الطويلة وحين الهجرة والنزوح ، ربما لما في ذلك من مشقة وعبء وصعوبات ، وتاريخ القبائل المروي توارثاً عبر الأجيال مليء بالمغاربة الذين تزوجوا من بنات الإقليم الذي يمرون به وخلّفوا وراءهم منهن نسلاً عاشوا وأمهاتهم بين الأخوال ، إنها عادة منتشرة إذن في تلك الأزمان ، فلم لا يكون محمد الفاسي قد فعل ذلك كالآخرين؟.

(1) ـ نجد شرومة حيّاً على ما عند شارل فيرو في حولياته في سنة 985هـ. وهذا غير محتمل إلا بافتراض أنه لم يولد لأبيه إلاّ وقد تقدّمت به السن ذلك أنه لاقى حتفه في القتال ولن يحمل السلاح من جاوز المائة من عمره على التأكيد.

• خود بنت شرومة:

وخود[1] هذه واحدة من أقوى النساء الليبيات في تاريخنا الحديث جميعه شخصيةً ، فهي ذات تصميم وحزم يفتقر العديد من الرجال إلى بعضه لاتخاذ القرار على ما سنراه من أمرها. وقد هيمنت خود بهذه الشخصية الطاغية على فكر ابن غلبون وعلى قلمه فانساق يروي قصتها مبتدئاً بها حديثه عن الصلة الأولى للأتراك بفزان ، الأمر الذي جعل حديثه عنها ومن وجهة نظر تاريخية بحثه إقحاماً بلا تمهيد وبلا مقدمات قد تساعد الباحث على تصور مسار الأحداث السابقة والأوضاع التي كانت عليها فزان قبل خود على الرغم من كونها سلطنة قائمة ولها جيشها وصاحبها وكيانها الذاتي.

وقد فطن النائب ـ فيما نلمسه منه ـ إلى هذا الإقحام المناجي فتصرف في المادة ومن غير ما إضافة لجديد اللهم إلاَّ تبريره لتدخل الأتراك في فزان فنصل ما بين قصة خود مع بعلها وموته كمداً لصدها له ، وبين حملة الأتراك التي أعادها إلى سوء سلوك الناصر (الثاني) الذي خَلَفَ أباه ، وسنرى هذا منه فيما سيأتي من روايته لكلا الحدثين.

---

(1) ـ خود صفة عربية خالصة حدّد الخليل مدلولها بأنه :"المرأة الشابة ما لم تصر نَصَفاً". وهي في القاموس : "المرأة الحسن الْخَلْق ، الشابة أو الناعمة"، إلاَّ أنه هنا اسم علم لا صفة ، وقد خفي كل هذا على النائب فجاء به مؤنثاً :"خوذة" وهو خطأ لاشك فيه ، فالخودة والخوذة من ملابس الفرسان في الحرب ولا توصف بها المرأة لهذا ، وجرّ هذا إيتوري روسي (وهو مستشرق) فجاء بها خودة وهو ينقل روايته عن ابن غلبون الذي وردت عنده خود.

وقد تعرض ابن غلبون لقضية فزان وخود والأتراك مرة أولى على عهد مراد آغا وقبل استيلاء سنان باشا على مدينة طرابلس بقليل ، فقال :"... قيل وراسلته خود بنت شرومة بن محمد الفاسي صاحب فزان ، فأرسل إليها طائفة من جنده سنة 956 ست وخمسين وتسعمائة فملكوا أرض فزان. والصحيح أن أخذ فزان إنما كان سنة 985 خمس وثمانين وتسعمائة بعد فتح طرابلس وموت طورغود باشا بأيام ، إذ كان أمر الجند شورى بينهم ، وسيأتي إن شاء الله تعالى ذكر ذلك"[1].

ثم عاد وكما وعد إلى الموضوع فقال ما نصّه وبالحرف :" فلما كانت سنة خمس وثمانين وتسعمائة راسلت خود بنت شرومة بن محمد الفاسي ، زوج المنتصر صاحب فزان العسكر بمدينة طرابلس أن يقدموا عليها لتملكهم البلد ، ووعدتهم بالعطاء الجزيل إن وصلوا إليها".

"وسبب ذلك أنها كانت تحت ابن عمها المنتصر بن الناصر بن محمد ، وكانت له زوجة أخرى من أهل مرزق ، ولم يكن له منها سوى ابنة ، وكان له من المرزقيّة عدة أولاد ، وكان أكثر إقامته بمرزق ، وكانت تسكن القصر الأحمر بسبهة ، وكان قصراً منيعاً ، فداخلها ما داخل النساء من الغيرة ففعلت ذلك ، فوجهوا إليها طائفة من الجند".

---

(1) ـ ابن غلبون : التذكار ، ص127.

"واتفق أن قدم عليها زوجها المنتصر من مرزق ، فسدت أبواب القصر عنه وأحسنت لحاشيتها وقاتلته ، فحاصرها ثلاثة أيام فمات كمداً ودُفن بالجامع الجديد".

"فلما مات زال ما بها من الحقد وحدثتها نفسها بالملك ، فندمت على مراسلة الترك بالقدوم ندامة كسيعة ، وفكرت في نفسها حيلة تستعد بها لهم إن قدموا عليها ، ففاجأها قدومهم بالقرب من موته ، فلما رأتهم قصدت إلى حجارة على جبل بمقربة من القصر فألبستها أقبية الرجال وعمائمهم حتى ظنوا أنها رجال ، وانقطعت بهم الأرض ، فراسلوها أن تفي بما وعدت بعد أن سدت القصر بغلق أبوابه وامتنعت ، تظن أن ذلك يقيها . فلما أيقنوا أن تلك الحيل حجارة هجموا على القصر فملكوه وأخذوها وعذبوها عذاباً شديداً ثم أحرقوها . وتوجهوا إلى مرزق بعد أن ملكوا سبهة وكان بمرزق الناصر بن المنتصر بن محمد الفاسي ، وكان أكبر أولاد المنتصر . فلما بلغه الخبر وتيقن ألاّ طاقة له بقتالهم لعدم استعداده لهم فرّ بخزانته وإخوته ومن تبعه من أعوانه لأرض كاشنه من أرض السودان ، واستقرّ بمدينة كاشنه ، وملك الترك البلد وجعلوا عاملاً عليها منهم يقال له مامي وأقاموا مع طائفة من الجند ورجعوا قافلين"[1].

هذه الرواية بالذات هي المصدر الذي استقى عنه جميع من كتب بعده من المؤرخين في الموضوع ، وفي مقدمة الجميع بالطبع أحمد

---

(1) ـ ابن غلبون : التذكار ، ص143 ـ 144.

النائب الذي قدّمها في كتابه (المنهل العذب) مع التصرف فيها على الشكل الذي تراءى له فجاءت عنده كما يلي :

"وفي سنة (985) خمس وثمانين وتسعمائة مات (المنتصر بن الناصر بن محمد الفاسي) عامل (لواء فزان) متأثراً مما ناله من قهر زوجته (خودة)".

"وكان من خبره أنه لما بنى بها أسكنها بالقصر الأحمر الكائن (بسبهه) من قرى فزان ثم تزوج عليها من نساء مرزوق وولع بها ، فثقل ذلك على (خودة) وأضمرت لبعلها السوء ؛ فاتفق أن المنتصر أطال المكث عند زوجته المرزوقية فاستثار هذا التأخير غيرتها ولما قدم عليها جاهرت بالعداوة ، ومنعته الدخول إلى قصرها . وكان القصر منيعاً فحاصرها فيه ثلاثاً وفي الرابع مات كمداً ".

"واستبدّ (الناصر) أكبر أولاد المنتصر بمرزوق وقطع أسباب الطاعة ومنع الجباية ؛ ولما اتصل الخبر بمحمد باشا سرح العساكر لتمهيد تلك الجهة ، وقدموا (سبهه) وقبضوا على (خودة) وقتلوها ، وفرّ ابنه الناصر بخزينته وإخوته ولحق بأرض (كاشنه) من السودان وأوطن بها ، وتبوأ الجند مرزوقاً من غير قتال وانقادت الأهالي إلى ما ألفوه من الغرامة وقوانين الخراج".

"ولما تمهد الهناء استعمل أمير الجند عليهم رجلاً يُدعى (مامي) وترك معه طائفة من العساكر وانقلب ببقية الجند إلى طرابلس

مظفرين، وكان وصولهم إليها في سنة (990) تسعين وتسعمائة"[1].

وقد جاء شارل فيرو في (حولياته) بذات رواية ابن غلبون التي قدّمناها ، وزاد فيها بضع تفاصيل لعلّ أهمها مصرع والد خود في أثناء القتال ، وقد يكون له في هذا مصدره الخاص إلاَّ أنه لم يُشِر إليه ، ولا نرى داعياً لإيرادها هي الأخرى والاكتفاء بدلاً من ذلك بالإشارة إلى ما تجب الإشارة إليه منها عند لزوم ذلك وحسب.

وبما أن رواية ابن غلبون هذه هي مصدر بقية سائر الروايات التالية لها في تاريخ الأسرة والإقليم ، وهذه وكما نرى تقتحم اقتحاماً ولا تمهد إلاَّ بالإشارة المقتضبة إلى أن "محمد الفاسي" هو صاحب فزان وأن "المنتصر" صاحب فزان وهو حفيد محمد الفاسي وابن "الناصر" وأن خود زوجته هي بنت "شرومة" بن محمد الفاسي ، فإن ما قدّمه من قصة خود يصبح هو السبيل الوحيد أمامنا للبحث والاستقراء ومحاولة استشفاف الماضي منه ، وليس هذا المنحى ـ قطعاً ـ بالمركب السهل ، فخوضه مجازفة محفوفة بالمزالق ولن نحصل من ورائها إلاَّ على مجموعة من الافتراضات والاحتمالات التي لا ترقى إلى مرتبة ذات التاريخ المسلم به والمقبول إلى أن يدعمها أو ينفيها ما قد يُكشف عنه مستقبلاً من وثائق التاريخ ومدوّناته.

وجد ابن غلبون نفسه أمام روايتين ، فردّ أسبقها عهداً وسلم بالثانية فاعتمدها. ولم يذكر فحوى التي استبعد بل اكتفى منها

---

(1) ـ أحمد النائب : المنهل العذب ، ص217 ـ218.

بالتلميح إلى أن "خود" قد راسلت مراد آغا وأن هذا أرسل طائفة من الجند فملكوا أرض فزان ، بل وقبل قدوم درغوت وعهده . ونتساءل نحن عما إذا كان للرواية الأولى المستبعدة بعض نصيب من الصحة فيما يتعلق بالمراسلة وطلب النجدة ، وبغض النظر عن شخصية من أقدم عليها ووجهها ، فالواقع التاريخي وتلك الأوضاع القلقة السائدة خلاله توحي بتصرف من هذا القبيل والصلات ما بين الجنوب الليبي وشماله لا تنفيه بل إنها قد تستدعيه وتحتّمه :

فتاجورة قد حلّت محل طرابلس كسوق تنتهي إليها فزان بما تورده مما تستورد من منتجات أواسط القارة ، ومعنى هذا أن هناك من المصالح ما يحرص الطرفان عليه ويبرر لجوء المهدد بخطر إلى طلب النجدة والمعونة على الخصم ، وأن يستجيب الآخر فيلبي الصريخ ليحمي مصالحه ولا داعي لهذا أن يسيطر أو أن يحتل.

ومحمد الفاسي قد خلف ابنين هما الناصر وشرومة ، ولا نعرف ما إذا كانا قد تنازعا السلطة بعد أبيهما أم لا ، إلاّ أن هناك في أحداث الفترات التالية ما يحملنا على الظن أنهما توصلا إلى اقتسام البلد ما بينهما ؛ فالجنوب وحاضرته مرزك للناصر وقد خلفه عليه ابنه المنتصر ، والوسط وحاضرته سبهة لشرومة الذي لم يخلف سوى خود ، أما الشمال (وادي الشاطئ) فقد كان واقعاً تحت النفوذ البدوي للمقارحة والحساونة ولا سلطان لأي منهما عليه ، فإذا استعان الناصر على أخيه والخرمان (سكان وادي الآجال وأصحاب السيطرة المفقودة على فزان) بالسودان وهم جيرانه وفيهم مصالحه ، فليس من المستغرب

أن يستعين شرومة بأهل تاجوراء (مراد) ففيهم مصالحه . أما توتر العلاقات ما بين الأخوين فله أكثر من مبرر وسبب فقد تكون السياسة وقد يكون الاقتصاد وقد تكون الرغبة في التسلط وبسط النفوذ من أهل الجنوب على أهل الوسط اغتناماً لانشغال أهل الشمال عنهم بما هم فيه ...إلخ.

ومعنى هذا أن التراسل قد يكون حدث فعلاً حين كان مراد آغا على رأس أهل تاجوراء ، وأن يكون هؤلاء قد خفوا لنجدتهم دفاعاً عن مصالح أو درءاً لأخطار ، إلاّ أننا مع ابن غلبون في نفي أن تكون القائمة به هي خود اللهم إلاّ إذا احتملنا أنها كانت ساعد أبيها على عمها وأخيه آنذاك (أي قبل الزواج). كما أننا معه في أن الأتراك لم يمتد نفوذهم على فزان آنذاك، ولأمرين : أن العثمانيين كدولة على الأقل ، لا وجود لهم بعد في هذه البلاد وليس مراد آغا بالذي يعنى بنشر النفوذ العثماني على الدواخل وهو المهتم بطرد الفرسان من طرابلس ، ولا لأهل طرابلس بتاجوراء مطامح - آنذاك - تتجاوز تحديد مدينتهم طرابلس.

ونرى ، وقبل أن نتجاوز هذه القضية ، أن نبحث في قضية اقتران المنتصر بن الناصر بخود بنت شرومة ، فعلى الرغم من قرابة الزوجين ، نلمس في هذه المصاهرة ما بين الفرعين ، نوعاً من الزواج السياسي الذي غايته الأساسية صهر الجنوب والوسط في سلطنة واحدة تجمع ما بين مرزك وسبهة عن طريق الزوجين ، وهذا أمر سنعود لبحثه فيما بعد ، أما هنا فإننا نكتفي باحتمال أن يكون هذا الزواج قد تم عقده

- ربما - كشرط من شروط الصلح والتقارب ما بين الناصر وشرومة في تنازعهما الذي أشار إليه ابن غلبون في روايته الأولى ثم نفاه على ما قدّمناه من البحث في هذا السبيل ، وإذا جاز لنا أن نتصور زواجاً إسلامياً طابعه سياسي من هذا النوع، قلنا إن من شروطه أن تستمر خود مالكة لما كان لأبيها شرومة ، إلى أن يرث ذلك من سيولد لها من صلبها ومن هذا الزواج ، وقد كان المتوقع أن يكون ذكراً - بالطبع - وجامعاً بالتالي السلطتين ، ولسنا هنا بقادرين على تقديم أي دليل على هذا ، فمؤرخو العرب - عادةً - ميالون إلى تجاهله وعدم الخوض فيه ، على الرغم من وجود أكثر من مثال من ذات القبيل في التاريخ العربي الإسلامي.

أ - الشخصية والصفات:

لعمها الناصر ابن سيخلفه وهي وحيدة أبيها ، فإن أرادت أن ترثه وتخلفه فعليها - وإن كانت أنثى - أن تصبح للمنتصر نداً ، تساويه إن لم تفقه في التصرفات وفي بعض الصفات ، وهذا يعني ضرورة تعاليها على طبيعتها كأنثى في بعض المواقف والحالات ، على رغم معارضة مجتمعها الرجالي الذي لا يسمح للمرأة بسوى دور الزوجة والأم فيه ، ولكن خود كان عليها أن تتحدى وقد فعلت ، لم تخضعها الزوجية للمنتصر حين أصبحت له حليلة ، فقد كان لها من حق السلطة في

ملك أبيها ما لا دخل للزواج فيه ولا حق للزوج ، وهي به ضنينة ، وعليه حريصة إلى حد تركها المنتصر للضرة المرزكاوية وسكناها القصر الأحمر بسبهة بعيداً عنها وعنه.

هذا التصور أو هذه الصورة لم يقدمها ابن غلبون لخود ، وما كان له أن يفعل ، وهو ابن بيئته ومجتمعه ، وهو ما حمله على أن يفسر مواقفها من خلال مفاهيمه لدورها كزوجة وأم وحسب ، ولكن ما قدمه على إيجازه يفهم منه ما قدّمناه ورسمناه . فخود إنما سكنت وادي الآجال (الوادي الشرقي منه) وتركت وادي سيرين (الجفرة الشرقية) لتمارس سلطانها على ما هو لأبيها الشيخ الهرم والذي سيئول إليها من بعده وبصورة مستقلة تماماً عن المنتصر ، ولعلها ما كانت لتتصرف هذا التصرف لو أنها رزقت منه بولي عهد ، أما وهذا قد ولد له من امرأة سواها (ضرة) فليس من بد من تصرفها على هذا الشكل الذي يظهر الحرص على ما لها هي ذاتها من سلطان.

والمنتصر بن الناصر بدوره ليس بالرجل السهل ولا هو دونها همة وطموحات ، وبالتالي فإن لم يمتد نفوذه على ما سيترك العم بحق الزوج والعصبة فلا مفر من استخدام القوة كسلطان لضم ذلك إليه ، وهو ما حاول أن يفعل ، على ما أورده ابن غلبون عنه في روايته ، وإن ذهب في التعليل غير مذهبنا فأعاد المسألة جميعها في رومانسية إلى طبيعة الأنثى في خود ، وفشل الحملة إلى موت المنتصر كمداً لصدود الزوجة وتمنعها عليه وهو ما لا منطق فيه يحمل على القبول به كتفسير لما حدث ، والتناقض هنا ما بين الحب القاتل والسلطان

الغاشم هو ما دفعنا دفعاً إلى هذا الطريق الآخر الذي يبعد بالتاريخ عن تلك السذاجة الأسطورية في تقديمه أحداثاً لاستناد الرواة فيه على مجرد النقل ودون إعمال للفكر في تقييم وتحليل وتعليل الحدث المروى ، وللمؤرخ ابن خلدون في مقدمته رأي صريح .

ب ـ نزاع على السلطة:

من هنا لا نجد منطقياً ما ذكره ابن غلبون من مراسلة خود للأتراك واستدعائهم إليها لتسلم لهم فزان وتعينهم على ذلك لمجرد الانتقام والتشفي من المنتصر الذي مال عنها إلى ضرتها ، فالغيرة هنا ـ وفي نظرنا ـ مجرد خيال القصص الشعبي ، أما الدافع فآخر ألصق بالسياسة وسلوك الحكام ، فخود شريكة للمنتصر في ملك فزان ، وملكها مفروز عن ملكه ، فله الحضرة ولها الآجال ، وهي قد رزقت منه ببنت وكان ولي عهده من الأخرى هي ضرة لها ، ومعنى هذا أنها إن لم تتخذ مبكراً من الإجراءات الاحتياطية المعيقة فينتهي ملك أبيها إلى ابن الضرة في خاتمة المطاف ، ولو من بعد موتها ووفاة المنتصر . ويبدو أن تفكيرها كان انتحارياً بمعنى : "عليّ وعلى أعدائي يا رب" فمادام القدر قد حرمها من الابن الذكر الذي سيلي الأمر من بعدها ومن بعد المنتصر ، فليحرم "الناصر" ابنه من أخرى من أيلولة ملكها وملك المنتصر معاً إليه ، وليذهب إلى آخرين ، وهم آنذاك الأتراك.

ذاك دافع محض شخصي أقرب إلى ما تصورناه وصورناه من "خود"، إلاّ أن هذا لا يمنع من كون الدافع إلى الاستنجاد بالأتراك

كحكام لطرابلس : آخر أكثر تعقيداً وتداخلاً مع الواقع الشعبي والمحيط وما عليه علاقات الخرمان ، كأن يكون هؤلاء قد حاولوا ذلك ليقوا أنفسهم من بعد موت شرومة وانعدام الولد الذكر لخود من أن يرثهم الناصر فيؤول أمرهم إلى أن يتحكم فيه أهل مرزك والجنوب ، بل وربما إلى أبعد من ذلك كأن يكونوا قد راودهم الأمل في استعادة ما كان لهم من سلطان ولو بمعونة الأتراك ، وافتراض كهذا يثير في النفس تساؤلاً عما قد يكون لهم من دور في إفساد العلاقة ما بين الزوجين إلى حد اللجوء إلى التقاتل وتسيير الحملات ، مؤامرات ودسائس لا نعرف عنها شيئاً مما ذكر ابن غلبون ، ولا مصدر لنا سواه ، إلاّ أننا إذا اقتربنا أكثر تاريخياً فإننا نجد ما يدعم هذا في ترجمة الطاهر وترجمة محمد بن جهيم ، وسيأتي هذا في مواضعه المناسبة من قادم البحث.

وسواء أكان الدافع ذاتياً أم الخرمان فالذي يرويه ابن غلبون والنائب وفيرو إنما يبرز حرباً بكل ما تعنيه الكلمة من معنى ، وفي الحالين لا تكفي قصة الحب المفقود للتغطية عليها بالتأكيد ، فروايته "واتفق أن قدم عليها زوجها المنتصر من مرزق ، فسدّت أبواب القصر عنه ، وأحسنت لحاشيتها وقاتلته ، فحاصرها ثلاثة أيام فمات كمداً ، ودُفن في الجامع الجديد". ورواية النائب لا تخرج عن هذا :"... ولما قدم عليها جاهرت بالعداوة ، ومنعته الدخول إلى قصرها . وكان القصر منيعاً ، فحاصرها ثلاثاً وفي الرابع مات كمداً". أما فيرو فإن روايته :"... فمكّنت خود أنصارها من [دخول] القصر ، واتفق أن قدم

عليها زوجها المنتصر من مرزق فسدّت أبوابه عنه . واستمر القتال بين الجانبين ثلاثة أيام حيث قتل أثناء ذلك والد خود. وعندئذ خشيت هذه من ألاّ تتمكن وحدها من الصمود ، فكاتبت باشا طرابلس طالبةً الدعم منه ، وعرضت أن تسهل عليه فتح البلاد إذا ما أرسل إليها جيشاً. وفي أثناء تلك المفاوضات توفي زوجها المنتصر"[1]. ونجد أن فيرو قد زاد على ما أورد ابن غلبون مصرع والد خود الذي جعله الحافز لمراسلة خود للأتراك ، كما أطال في عمر المنتصر لأكثر من الأيام الثلاثة ومن الرابع الذي قال النائب به ، وإن لم يحدد لها عدداً (وفي أثناء تلك المفاوضات) عبارة تحتمل القلة والكثرة معاً إلاّ أنها قطعاً أكثر من الثلاثة والأربعة التي قال بها الاثنان.

إن المنتصر يزحف على رأس جيش من مرزك على سبهة حيث خود، وهذه تستعد للقائه بمن حشدت من أبناء الوادي ، إلاّ أنها إما لأنها كانت في قوة أقل ، وإما لأنها آثرت تجنب الدخول في معركة غير مضمونة العواقب انتظاراً للمدد من داخل الوادي أو من طرابلس ، إلاّ أن المنتصر حاصرها بقواته الزاحف بها ، وكان هذا الحصار قصير الأمد إذ رفع بعد أيام ثلاثة ، وهذا ما تُجمع عليه الروايات الثلاث ؛ وهنا فإن لنا أن نتساءل عمّا إذا كان ذلك لخروج القوة المحاصرة داخل القصر حين وثقت من قدرتها على القتال أو حين وصلت إليها نجدات الخرمان من الوادي ، وفي الحالين فإن القتال كان عنيفاً شارك

---

(1) ـ شارل فيرو : الحوليات ، ترجمة الوافي ، ص157.

فيه شرومة على رغم تقدّم السن به وقُتل ، والمنتصر بشخصه وقد صُرع، أو أن هذا ما نفهمه من الروايات الثلاث بعد طرح "مات كمداً" ذات العلاقة المباشرة بالرومانسية المستبعدة منا أساساً كتبرير وتعليل .

هذا الزحف ، وهذا التصدي للزحف ونتائجه ، وإذا ما نظرنا إليه من زاوية التكتلات الاجتماعية لمجموعات السكان البارز هنا وهناك، ومن وراءها من القوى السياسية والاقتصادية الدافعة والمحركة للصراع ، نجده لا يعدو أن يكون تنازعاً وصراعاً على السلطة، ومن ورائه سلطنة كانم وبرنوح الداعمتين لمرزك ، وطرابلس والأتراك الداعمين للخرمان وسكان وادي الآجال الآخرين ، وقد لا نلمس هذا في هذه الفترة المبكرة منه، غير أننا نجدها سافرة في أحداث فزان التالية والتي سترد فيما بعد وأثناء العرض.

جـ - هل راسلت خود الأتراك؟

نجد أنفسنا وللمرة الثانية، وفي نفس الفترة على وجه التقريب، أمام قضية تاريخية ذات جوهر ومظهر قانوني دستوري دولي ، غايتها الأولى والأخيرة أن تبرر امتداد الأتراك العثمانيين بنفوذهم إلى طرابلس أولاً ، وإلى فزان تالياً بأنه جاء استجابة لمطلب السكان المحليين (أهل تاجورة في الأولى ، وخود في الثانية) ؛ وقد بحثنا مفصّلاً قصة وفد تاجوراء إلى القسطنطينية في عمل غير هذا ، وقد استبعدنا كلية أي احتمال لصحة الخبر في الحالة الأولى ، ولا نرى غير هذا في قصة استنجاد خود بالأتراك ، وهذا ما سنحاول إيضاحه وبملابساته

فيما سيلي من هذا البحث ؛ أو ـ وبقناعة أقل ـ باستنجادها هي ، ورفض الخرمان (أهل وادي الآجال) لتصرفها ومقاومتهم له مما أدى إلى نهايتها هي وسيطرة الأتراك على فزان.

ابن غلبون ذاته يحس بالقلق وعدم الانسجام في روايته ما بين مراسلة خود للأتراك داعية لهم ليتملكوا البلاد وبين مقاومتها لهم حين قدموا عليها ، فيحاول تفسير ذلك بأن حاملها على استدعائهم هو غيرتها :"فداخلها ما داخل النساء من الغيرة ففعلت ذلك"، وأن ما حملها على التنكر لهم بعد ذلك هو ما حدثتها به نفسها من الملك بعد موت المنتصر.

وليس فيما دوّنه شارل فيرو حول هذه القضية ما يبعد بنا كثيراً عن رواية ابن غلبون على الرغم من تصرفه فيها عند العرض فهو أعاد لجوءها إلى الأتراك إلى ذعرها وتخوفها من العجز عن مجابهة الموقف منفردة بعد مصرع الأب ، ثم تراجعها ونكثها الوعد عقب وفاة الزوج ، واكتسابها في نفسها الثقة.

أما النائب فلم يجد فيما قدّمه ابن غلبون ما يقنع ، ففصل ما بين رومانسية القصة المرواة وبين الجانب السياسي العسكري للتدخل العثماني، وسكت كليةً عن قضية مراسلة خود للأتراك ، وأعاد حملتهم على فزان إلى الرغبة في القضاء على الناصر لاستبداده على السلطان ، ومنعه الجباية والرسوم ، وهو الذي لم يكن قد خضع له من

قبل ، ولا اعتراف هو ولا أحد من أسلافه للعثمانيين بتبعيته[1] .

وقد سبق لنا نحن إبداء احتمال من اثنين لكل منهما ما يبرره ويسنده ، أولهما : أن تكون خود قد أقدمت على ما أقدمت عليه من اتصالها بالأتراك تشفياً وانطلاقاً من :" إذا مت ظمآناً فلا نزل القطر" أو :" ومن بعدي الطوفان" أو وكما قلنا :" عليّ وعلى أعدائي يا رب"، فمادام لا ابن لها من صلبها فلن تكون لابن الأخرى من فرصة وضع اليد ما كان لأبيها ولها ، وليكن من بعدها للأتراك ؛ وثانيهما : أن يكون الذين فعلوا ذلك هم الخرمان ومن في صفهم من أهل وادي الآجال ، وذلك حتى لا ينتهي الأمر من بعد خود إلى آخر من الأسرة ، وهم سلالة مرزكاوية وملوك الجنوب . وهذا ما يبدو أن فيرو أميل إليه أو له من مصادره الأخرى التي نجهلها ما يعتمده ذلك أنه قال :" وفي سنة 1577م استقبل جعفر باشا وفداً قادماً من فزان يدعوه للتوجه لفتح هذا الإقليم الصحراوي"، وهذا منه إلى جانب ما جاء به من مراسلة ذات خود للأتراك . وإلى جانب هذين يبقى احتمال ثالث هو نفي أن يكون قد جرى أي اتصال من هذا القبيل ما بين خود أو أهل فزان والأتراك .

---

(1) ـ قد يبدو هذا اليوم غريباً أو لا منطق فيه ولا معنى له لأبناء عصرنا الحاضر حيث الشرعية للدولة مع النفوذ الفعلي وحسب ، ولكن ومع هذا فإن للنائب وعصره منطقه التاريخي ، فالشرعية للخليفة بحكم كونه أمير المؤمنين وطاعته واجبة على المسلم أنّى حلّ وحيثما كان ، ومقاومة عماله ، وبهذا المعنى خروج عليه ما لم يكن حاكم البلد من غير المسلمين.

أمام كل هذا نعود فنطرح السؤال الأساسي :

1 ـ هل كانت هناك مراسلة ما بين خود والأتراك؟

2 ـ هل استنجدت فئة ما من أهل فزان بالأتراك؟

3 ـ هل كان هذا من انتحالات الأتراك لتبرير بسط النفوذ؟

سؤال حائر بين هذه الصيغ الثلاث ، وسيبقى حائراً ومثاراً للجدل والدراسة والبحث لعدم كفاية ما بيدنا من معلومات قوامها مدوّن التاريخ وانعدام الوثائق المؤيدة لموقف الرفض أو القبول للاتصال ما بين فزان والأتراك.

د ـ نهاية خود :

وإذا نحن تركنا هذه القضية جانباً ، واعتبرناها كما ولو أنها لم تكن ، إذ هي في الحقيقة مسألة لا تقدّم ولا تؤخّر في سرد وقائع ذات الأحداث . فسواء أجاء الأتراك العثمانيون إلى فزان تلبيةً منهم لدعوة خود أم لأهل البلد أم ودون أن يطلب إليهم ذلك أحد ، فالنتيجة هي ذاتها فقد غزوها عسكرياً واستولوا عليها ففرضوا نفوذهم عليها وعلى أهلها ولم يكونوا في هذا بحاجة إلى مبرر من هذا القبيل . إذا نحن طرحنا هذه القضية جانباً فإننا نجد أن خود بنت شرومة قد انفصلت بوادي الآجال عن الحفرة الشرقية ووادي عتبة ، واتخذت لها من سبهة حاضرة ومن القصر الأحمر داراً للسلطنة وتركت للمنتصر بن الناصر حاضرته مرزك وزوجه المرزكاوية وأبناءه منها وفي مقدمتهم بالطبع ولي عهده الناصر الذي لا تبغض أحداً كهو.

"خود" و"المنتصر"، وحينما كانا شابين في مقتبل العمر اقترنا كزوجين سياسياً ولم يولد لهما ولد ذكر يجمع في ذاته ولاية عهد الطرفين فكان عبئاً لقيامه على مصلحة وربما من غير حب ، فلم يحس أيهما بعاطفة نحو الآخر ، فابتعدا وازدادا بُعداً حتى إذا يأس كل منهما احتكما إلى السلاح ليحصل هو ما منعت هي فكانت الحرب ، وكان الحصار والقتال حتى وجد المنتصر مصرعه ، لا كمداً وإنما بسهم أو برمح أو بالسيف ، كما فجعت خود في أبيها ، وإن خلص لها الأمر من بعد هذا فإلى حين وأمد جد محدود.

مرزك في حالة حرب مع سبهة استمرت فيما يبدو طويلاً قبل أن تبلغ في التصعيد حد السير بحملة عسكرية على رأسها المنتصر نفسه ضد خود ، وكان نتيجتها انقطاع الشريان الاقتصادي الحيوي لمدن الشمال عامة وطرابلس على وجه الخصوص التي تضررت بتوقف حركة القوافل فلم يحتمل أهلها ولم يحتمل الأتراك فقرروا وضع حد لذلك بحملة عسكرية جهزوها ووجهوها لاحتلال فزان والسيطرة على هذه التجارة ودروبها وحماية الأموال ، وتصدت لهم خود وأهل وادي الآجال إلاَّ أنهم سرعان ما غُلبوا على أمرهم فما كانت لهم من طاقة على التصدي للأسلحة النارية التي لم يكن لهم بها سابق معرفة[1]. ووقعت خود نفسها أسيرة "فعذبوها عذاباً شديداً ثم أحرقوها" ثم

(1) ـ ضربنا هنا صفحاً على ما وصفه ابن غلبون من حيل خود وإلباسها الحجارة ملابس الرجال لتوهم بوفرة رجالها ؛ وذلك لسذاجتها وعدم تصديقنا لها . أما استخدام الأتراك للأسلحة النارية فقد استقينا الخبر عن فيرو في الحوليات.

واصلوا الزحف على مرزك والناصر.

ويموت خود بنت شرومة على هذا الشكل الوحشي اللاحضاري واللاإنساني ، انقطع الفرع الثاني من نسل محمد (امحمد) الفاسي ، واستمراره في أبناء المنتصر.

• الناصر بن المنتصر:

رابع سلاطين فزان من هذه الأسرة وثاني من تسمّى بهذا الاسم من رجالها أو هو الناصر الثاني بن المنتصر بن الناصر الأول بن محمد الفاسي ، وأمه من بنات مرزك ، (لا نعرف أمهات أبيه وجده ولعلهن من الفزانيات). خَلَفَ أباه على إثر مصرعه ضد خود في سنة 985هـ أو التي بعدها ، ومصرع أبيه وتوليه هما أول التواريخ المحددة في تاريخ هذه الأسرة ، وهو لم يحكم مرزك إلاّ لفترة قصيرة ، فقد اضطر إلى مغادرتها فراراً بخزائنه وأخوته ومن لحق به من أتباعه وحاشيته.

ويحدثنا ابن غلبون عن هذا الفرار فيقول :" فلما بلغه الخبر ، وتيقن ألاّ طاقة له بقتالهم لعدم استعداده لهم ، فرّ ..."، وهي عبارات تدور حول معنى لا تريد التصريح به ، فالخبر الذي بلغه لا يتعلق قطعاً بتعداد الرجال فقد كانت لديه فسحة من الزمن تسمح له بالتعبئة ، وإنما بنوعية السلاح الذي ليس بيد رجاله منه شيء وهذا ما نفهمه من عدم الاستعداد ومن انعدام الطاقة معاً فالسلاح الناري

بالنسبة لهم جديد ، ولذا فقراره بالانسحاب جنوباً وقصده "كاشنه"[1] كان حكيماً وينم رغم صغر السن عن نضج سياسي وبُعد نظر ، فقد سلم بهذا من بطش الأتراك به.

واستولى الجيش التركي على مرزك ، فأقام بها حامية من الأتراك وجماعة من العلاونة (أولاد علوان) ربما كانوا مجندين محلياً من بين قبائل النواحي الأربعة ونصبوا عليها والياً من الأتراك يُدعى "مامي"[2]، ثم قفلوا راجعين ، ومامي هذا هو أول حاكم من الأتراك بفزان ، وكان سيء الحظ هو وحاميته من الأتراك ، فقد لاقى وإياهم حتفه بمرزك بعد بضع سنوات ، في ثورة لأهل البلد عليه في سنة 990هـ (1582 ـ 1583م).

لم يستتب الأمر للأتراك في فزان إلاّ قليلاً ، فقد ثار عليهم أهلها وفتكوا بهم جميعاً عاملاً وجنوداً ، ولكنهم لم يتعرضوا لمن كان في خدمتهم من أولاد علوان (العلاونة) على ما ذكر ابن غلبون في التذكار ، الأمر الذي يفصح لنا عن وعي سياسي لمن كانوا العقل المدبر لهذه الثورة والقائم بها ، إذ إنهم لم يستعدوا عليهم العناصر الوطنية وحصروها في دخلاء الأتراك.

ونفكر في أمر هذه الثورة من حيث الدافع فيتضح لنا من

---

(1) ـ يذكر إيتوري روسي عنها في هامش 3 ص75 أنها بوسط السودان ، وتقع بالشمال الغربي من كانو (غير كانم) بأرض نيجيريا اليوم ..

(2) ـ اشتقاق تركي من جذر "محمد" على ما يذكره إيتوري روسي في تعليقاته على ترجمته للتذكار.

نتائجها وما أسفرت عنه أنها قد خطط لها بإحكام ولم تكن ثورة غضب ونقمة تفجرت لمثير طارئ وحسب ، وإن وراءها رجال الناصر الباقين بفزان ، وأن الباعث لهم على الحركة كان شدة التعلق بالأسرة والولاء لها ، ولا يستبعد أن يكون الناصر هو الممسك بخيوطها والناسج لها من مهجره بكاشنه من بلاد السودان ، نستشف هذا من سرعة دعوته وعودته إلى مرزك واستعادته لسلطانه المفقود.

ويبدو أن الدرس الذي تلقاه الأتراك كان قاسياً ، فهم قد تخلوا عن أية محاولة لاستعادة نفوذهم على أي جزء من فزان بعدها إلاَّ بعد مضي ربع قرن كامل من الزمان ، تغير خلالها الوالي التركي ومات بعد مرض الناصر بن المنتصر وخلفه ابنه المنصور.

ولم يذكر التاريخ لنا شيئاً عن الناصر وملامح عهده ونوع حكمه ، وأحداث عصره ولا إلى أي مدى من شمالي الإقليم وجنوبه كان امتداد سلطانه الذي امتدّ بعد عودته واستئنافه حكمه من سنة 990هـ حتى سنة 1008هـ (1599 ـ 1600م) أي لثمانية عشرة سنة وهي فترة ليست بالقصيرة على أية حال.

• المنصور بن الناصر:

خامس من تولّى أمر فزان من هذه الأسرة ، وقد خلف أباه الناصر بن المنتصر بن الناصر بن محمد الفاسي ، وكان ذلك مع أول سنة من القرن السابع عشر للميلاد ، ولم يكن في انتقال الأمر إليه ما هو غير عادي ، فقد توفي والده بمرض ، وكان هو ولي عهده وأكبر

إخوته الذين نعرف من بينهم الطاهر على الأقل ، وسيأتي ذكره ، فلم يحدث ـ فيما يبدو ـ تغير في الوضع الذي كان قبله أو في عبارة أدق : فإن معلوماتنا نحن هي التي لم يطرأ عليها أي تغيير ، بمعنى أن صمت التاريخ قد امتدّ حتى سنة 1020هـ حسب رواية ابن غلبون[1]، وحتى سنة 1016هـ حسب رواية صاحب المنهل العذب[2].

إن ثلاثين سنة (986 ـ 1016هـ) أو أربعاً وثلاثين سنة (986 ـ 1020هـ) من التاريخ فترة كافية لأن يحصل الفزانيون خلالها على الأسلحة النارية ، وأن يدربوا على استخدامها وأن يبرعوا في ذلك ، فيلغون ذلك التفوق الذي كان للأتراك عليهم في سنة 986هـ. من هنا فإن القتال الذي خاضه الفزانيون ضد الأتراك في المعارك التي دارت حول ممر كنير على ما سيأتي كانت الأسلحة فيها متكافئة ، والتفوق إنما هو في العدد وفي خبرة القيادة في فنون الحرب وحسب ، وفي هذا يحدثنا ابن غلبون في التذكار عن حرب قامت في سنة 1020هـ (النائب يجعلها سنة 1016هـ) بين الوالي التركي سليمان داي وبين المنصور بن الناصر وعن معارك دارت بين جيشيهما عند حدود فزان فيقول : "... إلى سنة 1020هـ عشرين وألف ، فتاقت نفسه لطلب المنصور بن الناصر بن المنتصر بن محمد الفاسي صاحب فزان بالإتاوة ، فراسله بذلك فامتنع عليه فوجّه إليه جنداً ، فلما بلغ المنصور ذلك جنّد قومه واستعدّ للقائهم ، فجمع عشرة آلاف مقاتل ولقيه بمحل

(1) ـ ابن غلبون : التذكار ، ص147.

(2) ـ أحمد النائب : المنهل العذب ، ص227.

يقال له كنير بين أم العبيد والرملة خارجاً عن أرض فزان من جهة الشمال على مسيرة يوم من قرية الزيغن ، فالتقوا هناك واقتتلوا قتالاً شديداً ظهرت فيه شهامة المنصور وشجاعته ، حتى هزم عسكر سليمان وأكثر فيهم أهل فزان القتل ، ثم ردوا بعد الهزيمة ، وكسر المنصور وأُثخن بالجراح . ولما علم عدم سلامته بعث رسولاً إلى أخيه الطاهر ليفر بالحريم والخزانة ففرّ لأرض السودان كما أمره ، ومات المنصور من جراحته ، وقتل أكثر عسكره واستولوا على أثاث العسكر وسلاحه ؛ وتوجهوا إلى أرض فزان فملكوها وجعلوا عليها عاملاً تركياً يقال له حسين النعّال ومكث بها إلى سنة 1022هـ اثنتين وعشرين وألف ، وجعلوا معه طائفة من الجند ، فقام أهل البلد عليهم فقتلوهم عن آخرهم واستأصلوهم ، وأرسلوا إلى الطاهر بأرض السودان فقدم عليهم وبايعوه"[1] .

وقد ذكر النائب هذه الأحداث في منهله العذب فوافق التذكار في بعض تفاصيلها وخالف في أخرى كما يبدو ذلك مما يلي من روايته :" وفي سنة 1016هـ ست عشرة وألف اهتمّ سليمان طاي لتمهيد فزان ودفع المنتزي عليها فسرح العساكر إليها فزحف إليهم في نحو عشرة آلاف مقاتل ، والتقوا (بكثير) واحتربوا فانهزم جند اليكيجرية ثم كروا بعد الهزيمة ودارت بينهم حروب هائلة هلك فيها (الناصر) واختلّ مصافه ، وافترقت جموعه ، وشردت رواحلهم ، واتبعهم الجند

(1) ـ ابن غلبون : التذكار ، ص147.

والقتل والنهب يأخذ منهم مأخذه ، حتى استولوا على جميع ذخائرهم وسلاحهم".

"ولجأ أخوه الطاهر بن المنتصر بأهله لأرض السودان ثم تبوأ الجند مرزقاً من غير ممانع ، واستعمل أمير الجند عليها (حسن النعال) وترك معه مقداراً من العساكر وانقلب ببقيتهم إلى طرابلس أعزة ظاهرين"[1].

ونقارن بين هاتين الروايتين لذات الحادثة ، ونحن نعلم أن مصدر النائب في روايته هو ابن غلبون ، فنجد أنه وفيما مسّ منها وتصرف فيه كان محابياً للأتراك مسترضياً لهم أو مأموراً ، فهو قد عاد بزمنها سنوات أربع إلى الوراء ليطيل في عهد عاملهم حسين النعال ، ويمتد هكذا بنفوذهم فيجعله ست أو سبع سنوات ، بينما هو في التذكار سنتان وحسب ، وهو قد أورد تعداد إحدى القوتين المتقابلتين (عشرة آلاف) إلاّ أنه جعلهم من الانكشاريين (اليكيجرية) أي الأتراك في الوقت الذي هو في رواية ابن غلبون تعداد للقوة الوطنية (المنصور). وبينما يبرز صاحب التذكار دور الجانب الوطني بعبارات لا تغمطه حقه مع التزام ذكر الهزيمة للحقيقة في النهاية فإن صاحب المنهل العذب يقلل في عبارته من هذا الدور ويبرز عكسه . وهذا الأمر نجده يتكرر في سائر الكتاب تقريباً ، ومرده إلى أنه يكتب في عهد الأتراك العثمانيين ويخضع لقلم الرقيب في عهد الاستبداد الحميدي ، بينما

---

(1) ـ أحمد النائب : المنهل العذب ، ص227.

كان ابن غلبون يؤلف كتابه لأحمد باشا القرمانلي الذي لا يهمه أن يبرز الأتراك في التاريخ على هذا الوجه أو ذاك.

وهذه المعركة ، معركة وادي اكْنَيْر أو ممره ، ذات أهمية خاصة في تاريخ فزان وهذه الأسرة ، باعتبار أنها قد كانت الصدام الحقيقي الكبير الأول الذي خاضته فزان موحدة (الجنوب والوسط والشمال) لصد الأتراك ووقفت لهم فيه على حدودها كدولة ذات كيان وسلطان.

أما أسباب هذه الحرب ودوافعها فقد جاءت عند ابن غلبون على أنها اعتداء سافر من والٍ طاغية يدفعه الصلف ويدفع به الغرور فيقدم على مطالبة المنصور بالإتاوة :" فتاقت نفسه لطلب المنصور بن الناصر بن المنتصر بن محمد الفاسي صاحب فزان[1] بالإتاوة، فراسله بذلك ، فامتنع عليه". ولم يكن هذا هو ما قدمه النائب من سبب ، فهو يذكر أن سليمان طاي اهتمّ "لتمهيد فزان ودفع المنتزى عليها" فهذا منه عكس ما قال ابن غلبون ونقيضه فليست هناك من شرعية حكم والمنصور ليس إلاّ مجرد "منتز" (خارج) على حكم الأتراك ، وهو لم يطالب بإتاوة وإنما تحرك العسكر ضده لتحرير فزان من تسلطه عليها وهي بعد البلاد الخاضعة للسلطان العثماني (؟؟؟)

ونحن نعرف اليوم أن وراء محاولة امتداد الأتراك بنفوذهم إلى

---

(1) ـ هذا الحرص من المؤرخ على سلسلة نسب المنصور حتى أصله إنما أراد به إبراز أن المطالب بدفع الإتاوة إنما هو ملك أو بمثابة ملك ، وإنه لهذا ليس من المعقول أن يرضخ فيستجيب لمجرد الوعيد وممن ؟ من مغامر تركي نصبه الجند من بينهم وحسب.

فزان إنما هي الرغبة في السيطرة على مراكز الحركة والاتصال بأواسط القارة فهي دوافع اقتصادية إلى جانب مشاعر العظمة وطموحات قادة الجند المتحكمين في شؤون البلاد آنذاك ، ففي فزان ومن فزان مصادر الثروة وموارد الثراء ، ومن زائد القول إن ذلك هو وحده السبب الحقيقي لزحف سليمان داي بعساكره على فزان في سنة 1020هـ.

• معارك كنيرة لاحتلال فزان:

وكنير ـ أو كما هي في النطق الشعبي اكْنير (بسكون الكاف)[1] ـ وادٍ ضيق أو ممر وعر المسلك[2]، يقع على الدرب المسلوك قديماً من سوكنة أو من زلة إلى وادي الشاطئ أو إلى الوادي الشرقي (وادي الآجال) فإلى تبسه والجنوب من فزان ؛ وشمالها جبل السودا الذي تتصل بسفوحه رملة زلاف في قرنها الشمالي الشرقي ، حيث تُعرف بالرملة الكبيرة فالرملة الصغيرة ، وجنوبي كنير القرن الشمالي الشرقي من سرير القطوسة الممتدة فيما بين الآجال والحفرة. فكنير لهذا جميعاً تعد أحد أبواب فزان الشمالية ، وبالتالي فهي

---

(1) ـ راجع ما سبق ذكره حول (امحمد ومحمد) و(اشرومة وشرومة) في بدايات هذا البحث (ص82 وص83).

(2) ـ وقد حاول الكولونيل مياني توسيعه أثناء حملته الشهيرة على فزان ، وزادت من توسيعه السلطات الإيطالية بعد ذلك وفي أواخر العشرينات من هذا القرن ، فقلّت بهذا وعورة الطريق.

منطقة دفاع استراتيجية لا تغفل من مدافع ولا من مهاجم يريد غزو فزان من الشمال . وقد لعبت دورها في الحملات الكبرى لغزاة فزان ، وهي على التحديد في الشمال الشرقي من سبهة ، وبينهما ، وعلى نفس الدرب من الغرب إلى الشمال الشرقي ، سمنو ، فالزيغن ، فأم العبيد . وإلى الغرب منها وعلى الدرب الآخذ إلى وادي الشاطئ فإلى براك الشبّ واشكدة . لهذا فإن المنصور إذا تحرك بقواته الكبيرة ليرابط عند ممر كنير فهو إنما يكون بهذا مختاراً لأنسب المواقع استراتيجيةً للدفاع عن سائر فزان (شماله ، والوسط ، والجنوب)، وهذا الاختيار يقدم الدليل الأكيد على أن سلطان هذه الأسرة في عهد المنصور على الأقل قد امتدّ على سائر الإقليم[1] .

وقضية أخرى ترشد إليها ولا تفصح عنها بالكلمات الصريحة رواية ابن غلبون ، تلك هي قضية التجسس وبث العيون في صفوف العدو : وللمنصور في طرابلس عيونه ولاشكّ ، وإلاّ فما كان له أن يصبح على علم سابق بما كان الأتراك يدبرونه ضده ويعدون له من غزو فزان وإخضاعها للنفوذ العثماني . وهذا العلم المسبق تكشف لنا عنه : عمليات التعبئة العامة التي مكّنته من إعداد جيش دفاعي قوامه عشرة آلاف مقاتل ، وهو عدد لا يسهل بلوغه فما كانت فزان بذات كثافة سكانية تسمح بهذا إلاّ إذا شارك فيها سائر الواحات المتناثرة النائي بعضها عن بعض. كما تكشف لنا عنه المعرفة الأكيدة

---

(1) ـ لا يدخل المؤرخون والجغرافيون المحدثون ولا القدماء واحات الجفرة (ودان ـ هون ـ سوكنة) ضمن ما يسمونه بفزان كإقليم لوقوعها في الشمال من جبل السودا.

بالطريق التي ستسلكها الحملة التركية إلى فزان . العلم السابق بموعد تحرك هذه الحملة مما مكّن المنصور من استباق عدوه إلى الموقع ولكن بغير فترة طويلة لأن إمكانية الإقامة به لا تسمح بذلك لندرة المياه القريبة منه على الأقل بالمقدار الكافي لشرب عشرة آلاف مقاتل ، ولما يصحبهم من الإبل والخيل وهي ليست قليلة بالتأكيد .

بعد هذا الطرح لجوانب القضية نأتي إلى ذات المعارك التي دارت حول مواقع الجيشين في كنير ، ولنا في هذا روايتان ، لابن غلبون واحدة وللنائب الأخرى ، أما شارل فيرو في حولياته فقد كان اعتماده على أول الاثنين.

ونقرأ في التذكار وصفاً موجزاً لمسير هذه المعارك :"... فالتقوا هناك ، واقتتلوا قتالاً شديداً ظهرت فيه شهامة المنصور وشجاعته حتى هزم عسكر سليمان وأكثر فيهم أهل فزان القتل". وهذه - وفي نظرنا - مرحلة أولى من المعارك ، وقد استغرقت أياماً ولاشك ، فتعداد الجيشين كبير ، والمواقع وعرة والسيطرة عليها تقتضي هجوماً تلو هجوم ، ويعرف من درس فنون الحرب القديمة وأساليبها وتعبئتها أن التفوق في حالة كهذه لا تتأتى كما يحدث في معارك الأرض السهلة ، حيث تسهل الحركة ولا تحتجب الرؤيا بالوهاد والحزون.

وفي هذه الرواية لم يغمط ابن غلبون المنصور وجنده من أهل فزان فمدح وأشاد بما اعتقد أنه للقوم إنصاف . أما النائب وهو مقيد القلم والأتراك يعارضون في أن يعترف لرعاياه من سائر الأمم بأي تفوّق على العنصر التركي فقد اكتفى بأن قال :"والتقوا بكنير

واحتربوا فانهزم جند اليكيجيرية ثم كروا بعد الهزيمة" رواية جافة تعترف بالتفوق اعتراف المرغم ثم تسارع بالتقليل من أهميته.

وتلت هذه المرحلة الأولى مرحلة ثانية تجمعت فيها فلول العساكر التركية ـ ربما خارج الوادي ـ وعادت تهاجم قوات فزان ، وهذا أمر متوقع من عسكر نظامي كامل التدريب وله سابق خبرته بالحروب وكرها وفرها في ميادين القتال ، وهذا ما عبر عنه المؤرخان وهما معاً غير عسكريين باقتضاب ، فعبارة ابن غلبون :"ثم ردوا بعد الهزيمة" وعبارة النائب :" ثم كروا بعد الهزيمة" وليس بينهما في التعبير من فارق ، "فردوا" لها ذات معنى "كروا"، وكلتاهما تترك انطباعاً بأن الكر قد لحق الفر في عملية واحدة متلاحقة مترابطة كما في بيت امرئ القيس : "مكر ، مفر " مقبل ، مدبر معاً "، ولو كانا أو أحدهما على ثقافة عسكرية لفصل ما بين عمليتي الهزيمة والهجوم المضاد بما يفيد إعادة تنظيم الصفوف بعد تجميع الفلول وهو ما قلنا به.

وفي هذه المرحلة الثانية من القتال ينعكس أسلوب العرض بين الروايتين : ابن غلبون يجمل القول في جملة مركزة ولا يفصل :"... وكسر المنصور ، وأُثخن بالجراح"، أما النائب فهو قد أسهب إذ قال :"... ودارت بينهم حروب هائلة ، هلك فيها الناصر ، واختلّ مصافه ، وافترقت جموعه ، وشردت رواحلهم ، راقبهم الجند والقتل والنهب يأخذ منهم مأخذه". وهنا ـ وللحقيقة ـ نشير إلى أن ابن غلبون أيضاً لم يغفل هذا الواقع ، إلاّ أنه وبحذق ـ يحسده عليه رجل الإعلام الحديث ـ كسر

من حدة وقع الهزيمة بما أقحم من حالة المنصور وتدابيره ، فجاء قوله :"ومات المنصور من جراحاته ، وقتل أكثر عسكره، واستولوا [أو الأتراك] على أثاث العسكر وسلاحه". إنه هنا يعيد الهزيمة إلى وفاة القائد الأعلى وهو المنصور ، الأمر الذي يحرم الأتراك من التفوق العسكري المطلق على الفزانيين.

الفارق هنا بين الروايتين أن النائب ينفرد بالقول إن معارك الهجوم المضاد للأتراك كانت عنيفة "ودارت بينهم حروب هائلة"، وهذا يعني أن انتصار الأتراك على أهل فزان لم يأتِ سريعاً ولا عقب شن الهجوم المضاد ، وإنما بعد معارك عدة و"حروب هائلة" فقد خلالها الفزانيون موقعاً على إثر موقع من الممر من وادي كنير.

ولا نعلم مما بين أيدينا من الروايات شيئاً ذا بال من أمر هذه المعارك ولا مداها ولا الزمن الذي استغرقته ، إلاَّ أننا واستناداً إلى عبارة ابن غلبون :"ولما علم [المنصور] عدم سلامته"، ثم ومن بعد هذا "ومات المنصور من جراحاته"، يمكننا أن نستنتج استقراء أن نمتد بفترة المعارك والقتال الذي دار بين الفزانيين والأتراك إلى فترة أطول زمناً مما توحي به الرواية وتقدمه.

وأياً كان طول فترة هذه المعارك التي خاضتها قوات فزان الوطنية دفاعاً عن مواطنها ضد قوات الأتراك ، فإنها لا يمكن أن تحصر في معركة واحدة ولا في مصادمات ومعارك امتدّت ليوم واحد أو يومين ، بل لا مفر أمامنا من الامتداد بها لعدة أيام ، وحتى لبضعة

أشهر من سنة 1020هـ، حتى ولو كان هذا من جانب مجرد افتراض بني على الاستقراء والاستنتاج.

• من المنصور إلى الطاهر:

واستنتاجنا لطول فترة الصراع على الممر استقراء بنيناه على ما في عرض ابن غلبون من تقديم لكيفية سير الحوادث : فقد وجد المنصور فسحة من الزمن يقيّم فيها الموقف ، ويدرك ضآلة فرص النجح فيه فيرسل لأخيه ناصحاً بأن يلجأ إلى السودان بالأهل والمال ، ولن تتبلور قناعة كهذه في يوم أو يومين ، وجرح المنصور في الميدان وهو يقاتل مع رجاله إلاّ أنه لم يمت على الفور وكان استمرار بقائه حيّاً بين جنوده مدعاة لاستماتتهم في الدفاع حتى لحق بمعظمهم الفناء ، وهذا معناه إطالة أمد الصراع لأكثر من اليوم واليومين لاسيما وميدان المعارك وادٍ ذو شعب ورقاب وحواجز واستحكامات طبيعية تمكن من إطالة الأمد في الدفاع وتعرقل تقدم المتفوق بين الاثنين ، وحتى رواية المنهل العذب تقر بطول فترة الصراع :"ودارت بينهم حروب هائلة هلك فيها الناصر واختلّ مصافه..."، فهي ليست حرباً واحدة ، وإنما هي حروب هائلة بمعنى معارك دامية خاضها الجيشان قبل أن تختل مصاف جيش المنصور وتتفرق جموعه كنتيجة لموته متأثراً بجراحه.

والخلاصة في كل هذا هو احتمالنا شبه الجازم بأن معارك كنير كانت جبهة تقابل فيها جيشان أحدهما غازٍ والآخر يحاول الدفاع ، وأن انهيارها كان انتهاء حركة المقاومة والصد فالنصر فيها

حاسم وكلي ، وبالفعل فقد سهل على الأتراك بعد سيطرتهم على الممر ودحرهم لجيش المنصور التوغل في فزان التي لم تعد في واحاتها قوات تتصدى لهم حتى إذا استولوا على مركز السلطنة مرزك أيقنوا أن سائر الإقليم قد دانت لهم أقاصيه ، وكما فعلوا في الغزوة والاحتلال السابق فقد نصبوا على فزان عاملاً "حسين النعال" (الكنادرجي؟)[1]، وتركوا له بعض الجند الأتراك حامية ظنوها كافية لحفظ النظام وضمان التبعية.

ومما هو جدير بالملاحظة أن هذه هي المرة الأولى التي تنقطع فيها سلسلة السلطنة في أولاد امحمد ، فقد كانت في السيطرة العثمانية الأولى غير منقطعة ، فالناصر بن المنتصر قد كان سلطاناً قبل هجرته إلى كاشنه وهو قد عاد لسلطنته بعد أن نجح أنصاره في استعادة الأمر له . أما الطاهر بن الناصر فهو لم يكن مبايعاً بالسلطنة حين هاجر والمنصور لم يوصِ بها لأحد وقد مات ، وبهذا حصل القطع وما بعده وصل جديد لما كان منقطعاً وليس باستمراره من وجهة نظر الفقه الدستوري بالطبع.

(1) ـ لما كانت "النعال" عربية ، والرجل تركي فأغلب الظن أن ابن غلبون قد عرّب اللقب عن التركية وهي "الكنادرجي" أو ما يضاهيها في تلك اللغة.

• الطاهر يغتصب السلطان:

ما يُعرف عن أخلاق الفزاني كفرد وعن سلوكه أنه إنسان حليم ميال إلى المسالمة رقيق المشاعر والأحاسيس ذواقة لفنه أي أنه في اختصار لا غلظة ولا جفاف طبع فيه ، ولكن هذا السلوك الفردي يتلاشى في الجماعة ككل متى ما أُهينت أو لحق بها وفي أرضها مكروه، فأهل فزان في تاريخهم لم يكونوا بسلسي القياد في التاريخ ، وكذلك كانوا في الفترة التي نتعرض لها ونبحثها في هذا البحث ، وقد رأينا كيف أن محاولة الأتراك الامتداد بنفوذهم إلى فزان قد باءت في المرة الأولى بالفشل الذريع فلم يدم لسلطانهم كيان إلاّ لسنتين أو ثلاث ثم قضي على عاملهم "مامي" وحاميته ولم يبقِ الثوار منهم أحداً ، وهذا "حسين النعال" وحاميته ينتظرهم نفس المصير في مرزك ، فما للأتراك فيها من مقام وسلطانهم مآله إلى زوال وقد زال وبعد سنتين فقط من محاولة فرضه ثانية ، وبنفس الأسلوب : ثورة أهل البلد يُقتل فيها العامل ويقضى على سائر عسكر الحامية التي تركت له لتسنده وتحميه بحيث لا يبقى من الترك أحد بفزان ، ويستدعى الطاهر بن الناصر وأبناء المنصور من مهجرهم في السودان كما استُدعي الناصر من قبل.

ويبدو أن الباشوات والدايات الذين تعاقبوا قد وعوا الدرس واتعظوا به فلم يعيدوا الكرة ثالثة ، بل سلكوا مسالك أخرى على ما سيرد من ذلك في مواضعه ، وترك الطاهر وتُركت له فزان التي بايعه أهلها خلفاً للمنصور الذي قُضي بجراحه في معارك كنير ، فحكمها

كما يقول عنه ابن غلبون "معتدل الحال إلى سنة 1032هـ (1622 ـ 1623م) فطغى [بعدها] الطاهر وتجبّر وزاد في الخراج على الخرمان أهل وادي الآجال"[1].

وهنا لابدّ لنا من وقفة ، فالإنسان لا تتغير طباعه ولا يغير هو من مسلكه إلاَّ للوثة في العقل أو لسبب يحمله على ذلك ، ولكن التاريخ المروى لا يساعدنا بصمته على اكتشافه فلا يبقى أمامنا لذلك غير الاستقراء والاستنتاج من خلاله ربط الأحداث.

عشر سنوات (1022 ـ 1032م) مدة من الزمن كافية لأن يبلغ الأخوان : المنتصر ومحمد ولدا المنصور السن التي تؤهلهما لأن يطالبا العم بالتخلي لهما عن السلطنة باعتبارهما الوريثين وهو مجرد الوصي ، أو نفترض أن شيئاً من هذا حدث ، وكان الخرمان الذين يبدو واضحاً أنهم يعارضون أو غير راضين عن تفوّق مرزك على وادي الآجال الذي هم غالب سكانه ، وفي أغلب الظن أنهم الواعزون للأخوين بمطالبة العم بحقهما فيما كان للأب . ولعلّ الطاهر أحاط بهذا فقبض على ابني أخيه وسجنهما وأخذ في مطاردة مناوئيه من الخرمان، فهذا قد يكون سبباً لما حدث من تغيّر الطاهر الذي وصفه ابن غلبون بالطغيان والتجبر ضد هؤلاء بالذات .

ويبدو أن سلطان "برنوح" الأمير عمر المقدسي ، وفاءً منه لذكرى والدهما المنصور ، قد تدخل لصالحهما فطالب أن يوكل

---

(1) ـ ابن غلبون : التذكار ، ص156.

أمرهما إليه ، فما كان من عمهما الطاهر إلاّ أن أرسل بهما إليه ولكن بعد أن سمل منهما العيون[1]. وهذا تصرف لم يحدث لأحد قبله أن أتاه ولا أقدم أحد بعده على ارتكاب هذا الجرم الوحشي الشنيع . وقد أدى هذا التحدي السافر للأمير عمر المقدسي إلى غضب هذا وانتقامه من الطاهر حينما سنحت الفرصة له[2]. وسنعود إلى ذكرها برواية ابن غلبون في آخر ترجمة الطاهر بن ناصر الفاسي.

كل هذا استقراء للأحداث المرواة في التاريخ وما استنتجناه من الربط ما بينها بما تراءى لنا أنه منطقي ، إلاّ أن هذا شيء والتاريخ الحقيقي قد يكون آخر سواه . ومن التاريخ ما رواه ابن غلبون في التذكار من التجاء الخرمان إلى طرابلس واستنجادهم برمضان داي ، وهي حادثة ذكرها النائب أيضاً في المنهل العذب ، إلاّ أنهما لم يتفقا في تعيين تاريخها بسبب عدم اتفاقهما حول عهود ولاة الفترة على ما سنراه.

وننقل هنا ما قدّمه ابن غلبون في كامل نصه مع التجاوز عما ذكره من وصف لوادي الآجال وبحيراته لعلاقته بالجغرافيا لا بالتاريخ :

---

(1) ـ ويذكر بعض الرحالة (فختيغال) ما نفهم منه أن عادة إسمال عيون المطالبين بالعرش من الأسرة الحاكمة كانت معمولاً بها في بعض سلطانات السودان وخاصة سلطنة واداي، ولكن سلطنتي كانم وبرنوح كانتا تبغضان ذلك وتدينان من يرتكب هذا الجرم الوحشي.

(2) ـ ابن غلبون : التذكار ، ص158 ، وقد أهمل النائب في منهله العذب هذه الحادثة كليةً فلم يُشِر إلى أي جانب منها.

"فانتقلوا [الخرمان] فارين إلى طرابلس ، فأحس الطاهر بخبرهم ، فراسل مرابطي سبهة بالتعرض لهم وإرضائهم ، فتعرضوا لهم واسترضوهم فلم يرضوا ، وراسل عامله على سوكنة[1] أبا نوح المصراتي بالتعرض لهم فلم يقدر ، فقدموا على رمضان داي وصهره محمد الجزائري وهو الغالب على أمره فأكرمهم ووجه معهم جيشاً لأرض فزان ، فلما سمع الطاهر بذلك فرّ إلى أبي نوح[2]، وكان ملكه إذ ذاك الأمير عمر المقدسي وكان في نفسه من الطاهر شيء بسبب سَمْله عَيْني ابني أخيه محمد المنصور : المنتصر ومحمد ، وإرسالهما لدار ملكه ، وكان ذلك سبب تغير المقدسي عليه . فتغير تغيراً شديداً حتى عزم على التوجه إليه ، فأخبره بعض منجميه بأن سيقدم عليك الطاهر أرضك ، فلما فرّ هو وأعوانه وبلغوا قرية يقال لها بلد المرأة - ومنها افتراق طريقي السودان وابن نوح - ولم يكن لأرض السودان طريق إلاّ من هنالك ، والطريق المارة عليه على قرية غات حديثة عهد".

"فلما بلغوا تلك القرية أراد أعوانه التوجه لأرض السودان ، واراد هو ابن نوح ، فافترقوا من هنالك بعد أن كابد أعوانه معه شدة

---

(1) - هذه أول مرة نعثر فيها على ما يفيد بامتداد حدود فزان شمالاً بحيث تدخل ضمن حدودها الجفرة وقد كانت خارجة عن فزان في عهد المنصور (راجع ص ......) مما قد يحملنا على الظن بأن هذا قد حدث في أول عهد الطاهر وكنتيجة للتخلص من النفوذ العثماني.

(2) - ولقد صححها ناشره (الطاهر الزاوي) عن مخطوطة الأوقاف إلى "برنوح" بهامش منه في الطبعة الثانية.

في عدم التوجه إليها فأبى عليهم إلاّ التوجه ، فتوجه وكان معه اثنا عشر حملاً ذهباً . فلما بلغ الأمير عمر خاط عليه وعلى من معه من أولاده ومن توجه معه من أعوانه شكاير[1] وأغرقهم في البحر[2]، وتولى العسكر البلد وجعلوا أحمد بن هويدي الخرماني عاملاً عليه ، وأبقوا معه طائفة من الجند لحراسة البلد وضبط خراجها ، فلم يزالوا بها إلى سنة 1036هـ ست وثلاثين وألف ، فتوجه إليهم الأمير محمد بن جهيم ابن أخي الطاهر ، وكان قد فرّ معه ، فلما توجه عمه لأرض ابن نوح كره ذلك وتوجه لأرض كاشنة ومات والده جهيم بها ، فراسل ولده محمد أهل فزان خفية فتوجه إليهم بمن معه"[3].

والي طرابلس الذي قدم عليه الخرمان عند ابن غلبون هو رمضان داي ، والفترة ما بين سنة 1032 وسنة 1036هـ، إلاّ أنه في هذا لم يكن جازماً فقد ذكر ما يفيد بأن هناك رواية تعيد بداية عهد رمضان داي إلى حوالي 1042هـ وهذا التحديد الأخير هو ما أخذ به النائب في

---

(1) ـ شكاير : جمع شكارة ، وهي الكيس من الخيش أو النسيج أو غير ذلك ، وهي "الغرارة" و"الصفحة" في حمل البعير ، وهي "الكيس" و"الزكيبة" كوعاء لحمل الأمتعة والزاد ، وهي "الجوال" أو "الشوال" في احتواء الحبوب والسكر والدقيق ، إلاّ أنها خلاف كل هذا عند التعيين ، ولعلها أقرب ـ في هذه الحالة ـ إلى ما يعبر عنه حديثاً بكيس النوم .

(2) ـ والعرب يسمون النهر أيضاً بالبحر ، وكذلك البحيرة إذا اتسعت ، وقد استخدم لفظة البحر ابن غلبون للدلالة على إحدى بحيرات وادي الآجال (قبرعون أو فرعون)، لهذا فقد يكون البحر الذي أُغرقوا فيه نهراً أو بحيرة كبحيرة تشاد مثلاً ، وإن كنا لا نعلم ما إذا كان سلطان الأمير عمر المقدسي يمتد إليها أم لا .

(3) ـ ابن غلبون : التذكار ، ص257 ـ 258.

روايته ؛ إذ عاد مقدم وفد الخرمان إلى سنة 1044هـ (1634 ـ 1635م) كما يتضح لنا من روايته التالية :

"وفي سنة (1044) أربع وأربعين وألف قدم وفد من أهالي (وادي الآجال) على محمد باشا شاكين مما نالهم من جور الطاهر بن المنتصر المنتزي على فزان".

"فأصرخهم وأرسل معهم جيشاً لدفع المنتزي وأغذوا إليه السير، ولما شارفوا مرزقاً وسمع بهم الطاهر فرّ بأهله ولحق بأرض السودان وتبوأ الجند (مرزقاً) من غير ممانع . ورفع ما نالهم من عدوهم من الظلم وجعل عليهم (أحمد بن هويدي الخرماني) عاملاً وترك طائفة من الجند لحراسة البلد وضبط خراجها وقفل ببقيتهم مؤيداً".

"واستمر أحمد بن هويدي في عمله إلى سنة (1046) ست وأربعين وألف".

وبتدبر ما في التذكار من أحداث هذه الفترة وما عين لها من تواريخ نجد تداخلاً وخلطاً مثاله : أن عهد شريف باشا قد امتدّ إلى سنة 1035هـ ولم يبايع الجند رمضان داي إلاّ بعد قضائهم عليه . ومحمد باشا الساقزلي لم يدخل طرابلس للمرة الأولى إلاّ في عهد رمضان داي أي في أو بعد سنة 1035هـ وعاد إلى طرابلس من الجزائر بعد بضع سنوات أخرى وقد حدد ابن غلبون لولايته سنة 1040هـ أو سنة 1042هـ، فكيف مع هذا يكون محمد الساقزلي صهراً لرمضان داي وغالباً على أمره سنة 1032هـ ؟ وكيف يوجه جيشاً من الأتراك مع وفد الخرمان وهو لم يستقر بعد في طرابلس ؟ إن تحديد تاريخ الحادثة

بسنة 1044هـ الذي قال به النائب أكثر انسجاماً وتطابقاً مع سير الأحداث.

ومعنى هذا أن عودة الأتراك الثالثة إلى فزان ، وخروج الطاهر بن الناصر منها (نهاية عهده)، وتنصيب أحمد بن هويدي الخرماني عاملاً على البلد يحكمها باسم طرابلس ، كانت في سنة 1044هـ (1734 ـ 1635م) أو السنة التي بعدها . وهذا يمتد بعهد الطاهر وفترة سلطنته على الإقليم إلى اثنين وعشرين سنة كاملة قبل أن يخرج من مرزق فاراً بالخزانة والأهل إلى بلاد السودان ، كما يمتد بفترة تغيره على الخرمان لأكثر من عشر سنوات إذا ما أخذنا بما ذكره ابن غلبون في روايته.

ويذكر ابن غلبون نهاية هذا الرجل الذي حلّ محل أخيه المنصور وكوصي على ابنيه ، فاستمر سلطاناً مغتصباً ، وفقأ أو سمل عيون الوريثين الشرعيين على ما مرّ من الرواية فيربط ما بين الجريمة والمصير بما يجعل ذلك أقرب إلى درس الوعظ منه إلى التاريخ ، ولا نعتقد نحن أن الحامل للأمير عمر المقدسي على إتيان ما أتاه هو حرصه على أن يقتصّ لابني المنصور فالحادثة قد مضى عليها أكثر من عشر سنوات ، ولكنه الخيال الشعبي الذي جهل الدوافع الحقيقية تفسر الحادثة بما يعكس التشفي والكراهية للجرم ومرتكبه ، ونرى أن وراء هذا أسباباً ودوافع أخرى ذات علاقة بـ'لحكم والاقتصاد أي بالسياسة والعلاقات ما بين فزان وبر نوح ، وحتى وإن كنا لا يمكننا أن نلمسها أو نلمس ملامحها لصمت التاريخ ، ولعل فيما أشار إليه ابن

غلبون من اختلاف إخوته عنه وافتراقهم عنه عند "بر المره" أو "بلد المرأة" ما يشبه الدليل على توتر العلاقة ما بين البلدين آنذاك على الأقل بما أثار المخاوف وأدى بالأكثر تحوطاً إلى سلوك طريق أخرى تبعد بهم عن بلاد المقدسي.

• محمد باشا الساقزلي وفزان:

لم يكن محمد باشا الساقزلي على شاكلة من سبقه من الولاة مجرد قائد عسكري وصل إلى منصب الولاية بالجند وحسب، بل كان واسع الإدراك بعيد النظر حكيم في سائر تصرفاته التي تجعل منه أقرب إلى رجل الدولة السياسي منه إلى الضابط العسكري الذي يدين بقوة الجند ولا يعرف وسيلة أخرى للتحكم والسيطرة وفرض الطاعة على الناس. إن فيما ذكر التاريخ من أعمال الرجل ومنجزاته ما يبرز فيه عقلية رجل الاقتصاد وحكمة السياسي الذي يستخدم كلا العاملين أحدهما لسند الآخر في توازن ذكي.

إن فزان عنده مورد للخزانة لا يُستهان به، إلاّ أن إخضاعها بقوة الجند التركي المسير ضدها، محاولة ثبت له فشلها مما سبق، وتخليه عنها كما فعل أسلافه وبالنسبة إليه أمر لا حكمة فيه، من هنا كان مخططه لها مبنياً على غير الاحتلال المباشر ومرتكزاً على دعامتين:

الأولى: السيطرة على نشاط أهلها الاقتصادي من طريق التحكم في التجارة وموادها بضرب من الاحتكار يمكنه من فرض الحصار.

والثانية : استغلال عامل السخط والتبرم وتغذية روح التذمر لدفعها إلى التمرد والثورة على سلطانها الطاهر بن الناصر على أمل زحزحته عنها وتنصيب آخر من أهلها يكون صنيعة له يحكم فزان باسمه ويتبعه.

ويحدثنا ابن غلبون فيذكر من صفات الرجل وإن خلط فنسبها إلى عثمان الساقزلي أحياناً وإلى محمد باشا أخرى ما يبرز هذه وغيرها فيه ، إلاّ أنه وفيما يتعلق بأمر فزان خاصة ، قال في الأولى :

"فلما تمكن اشتدّ ظلمه ومنع التجار المسافرين لأرض فزان من التجارة في النحاس والخرز والكاغد ، ونادى ألاّ يتجر بذلك أحد غيره ، وحجر على الناس شراء السلع المهمة القادمة من البحر ، وأقام رجلاً لشرائها ، ودفع لرجل مالاً يشتري كل سلعة تأتي من بلاد النصارى أو غيرها ، ولا يستطيع أحد أن يشتري سلعة من أربابها غيره وهو يبيع لأهل السوق ، فبذلك ضعف تجار أهل البلد والمسافرون لأرض فزان ، وضعف الجالبون حيث لم يصادفوا ربحاً بسبب الحجر عليهم"[(1)].

أما عن الثانية فما كان لابن غلبون أن يصل إليها إذ إنها سياسة الخفاء التي لا تبرز إلاّ من خلال الدراسة التحليلية وابن غلبون في تاريخه راوية أحداث وغير دارس محلل لها على الأقل في معظم ما قدمه ، وفيما قدم ومما قدم يمكننا أن نلمس ملامح هذه السياسة منه واعتماده فيها على الخرمان وأهل وادي الآجال.

---

(1) ـ ابن غلبون : التذكار ، ص154 ـ 155 .

• الخرمان وأحلام استعادة السلطان:

لقد كان الخرمان وفيما يروى هم ورثة السلطنة من سلطنة "المايات" ولاة كانم على فزان ، فكانوا الحكام لواحاتهم جنوباً ووسطاً وشمالاً حتى أبعدهم عن ذلك محمد الفاسي مؤسس أسرة أولاد امحمد الذين كان آخرهم آنذاك هو الطاهر بن الناصر ، والذي يخطط محمد الساقزلي ومذ كان الوالي على طرابلس هو رمضان داي لزحزحته عن حكم فزان . وقد كان الخرمان يحنون إلى ماضيهم وقادتهم يحلمون باستعادة سلطان أبائهم المفقود ، وكانوا وراء تحرك الوريثين الشرعيين ومطالبتهما لعمهما بإعادة ما لهما من سلطان مما دفع بالطاهر إلى أن يشدد ويشتط على سكان وادي الآجال ، الأمر الذي وجد فيه محمد باشا الساقزلي فرصته المواتية فغذاه سرّاً وأحيا فيهم قديم الأحلام حتى تفجر الحقد في تمرد جماعي ولوح لهم عن طريق دعاته بينهم إلى استعداد طرابلس لدعمهم والوقوف إلى جانبهم إذا ما استغاثوا به ، ونجح في هذا فكان الوفد الذي تحدث النائب عنه فيما قدمناه من روايته ، وكان دعمه لهم بجيش تركي مهمته الأولى والأخيرة تتركز في تنصيب زعيم الخرمان سلطاناً على فزان ثم ترك الأمر له ولجماعته ، أو في عبارة أخرى قلب الوضع وجعل السيطرة لوادي الآجال على الحفرة الشرقية وعتبة وواحات الجنوب ، وهكذا وبهذا فليس في مرزك من الأتراك من يثور أهل البلد عليه ، فأحمد بن هويدي من أبناء فزان وقوة الحامية أيضاً من أبناء فزان ، وبالتالي فإن محمد باشا الساقزلي قد تستر بسلطانه على فزان بحليف له من فزان

ودعم سلطان هذا بذويه.

تلك كانت سياسة جديدة لا تقوم على المواجهة كما في السابق ، ولكن على التستر وراء دمية يحرّكها الباشا من طرابلس ، وكان لابدّ وأن ينتج عن هذا رد فعل من ذات السلوك في صفوف الرافضين لسيطرة العثمانيين ، ونلمس هذا في عبارة التذكار :"ومات والده جهيم بها فراسل ولده محمد أهل فزان خفية ، فتوجه إليهم بمن معه". فقوله هنا "خفية" تبرز لنا حقيقة أن المدبرين لحركة الثورة المضادة قد لجأوا إلى العمل السري والتكتم مجاراة منهم للظرف وواقع الحال ، وأنهم لم يقدموا على استدعاء محمد بن جهيم"[1] علناً ولا سراً إلاَّ بعد أن جمعوا أنصارهم فيما يعبر عنه حديثاً بالمليشيات ، وأصبحوا على استعداد وكفاءة لمجابهة خصومهم الخرمان أهل وادي الآجال.

وهنا لا نملك إلاَّ إجراء المقارنة بين التذكار وبين المنهل العذب، فقد كان لكل منهما نظرته إلى القضية وحكمه عليها تعبيراً عن وجهة نظر السلطة التي يكتب في ظلها وظل مفاهيمها في رواية التاريخ ؛ فالنائب ـ وهو مساير في روايته للأتراك ـ يصف حركة الثورة

---

(1) ـ بعد موت الطاهر وربما ذريته معه ، وانقطاع هذا الفرع الثاني من أبناء الناصر ، وبعد ما ألحقه هذا العم بابني أخيه المنصور من عاهة مستديمة بعدت بهذا الفرع الأول عن صلاحيته للسلطة أيضاً ، فإن محمد بن جهيم بن الناصر قد أصبح وبعد وفاة أبيه في المهجر هو المرشح لولاية الأمر كخلف لآخر سلاطين فزان من هذه الأسرة ، فكان لهذا اختياره ومراسلته لكونه الأحق بالأمر حتى ولو وجد سواه.

المضادة للنفوذ العثماني بالعبارات التالية التي تدينها والقائمين بها في عبارات قاسية متجنية غايتها إرضاء رجالات العهد :

"وفيها قدم محمد بن جهيم ابن أخ الطاهر في جموعه ضواري الفتنة وقصدوا فزّاناً فزحف إليه العامل بما لديه من العساكر والتقوا بـ:(حمَيِّرة) واحتربوا عامة يومهم فاختلّ مصاف العامل وهلك الكثير من جنده ولحق في فله بمرزق واعتصم بها فتبعهم (محمد بن جهيم) وحاصر بها إلى أن نفدت أقواتهم وأجهدهم الحصار فاستنجد العامل (محمد باشا) فأنجده"[1].

أما صاحب التذكار ـ وهو أقل تقييداً في قلمه من النائب في سرد الأحداث ـ فقد كان أكثر تحرراً في وصفه ، فقد جاء على ذكر الحادثة بموضوعية إذ قال :

"فراسل ولد محمد أهل فزان خفية فتوجه إليهم بمن معه ، فلما سمع بذلك الخرماني جند من معه ومن وافقه وخرج للقائه ، فالتقيا بحمّيرة ـ بلد بين زويلة وتراغن ـ وأوقع محمد بهم ففروا إلى مرزك ، فقفا أثرهم وحاصرهم بها حصاراً شديداً حتى فنى طعامهم ، وأكلوا ما معهم من الدواب حتى أكلوا الحمر ، وراسلوا ـ وهم محصورون ـ محمد باشا يطلبون المدد ، فوجّه إليهم مدداً"[2].

ابن غلبون أكثر اهتماماً برواية ما يتعلق بالعنصر الوطني في الأحداث ، ولذا نجده هنا يحكي من أخبار هذا الصراع ما وصل إليه

(1) ـ ابن غلبون : التذكار ، ص158 ـ 159.

(2) ـ أحمد النائب : المنهل العذب ، ص237.

علمه فلا يجنح إلى الاختصار كما فعل النائب في روايته (تعتيماً ؟) على دور العنصر الوطني في الذي قدّمه كما سنراه ، وليس هذا بالطبع من النائب تحاملاً على وطنه وبنيه ، فنحن نبرأ به عن ذلك ، ولكنه الاستبداد وقلم الرقيب ، وبالتالي فهو ضحية كمواطنيه.

ونقدّم أولى هاتين الروايتين (ابن غلبون) بتمامها وكما أوردها في التذكار : قال وبعد الفقرة السابقة أن الأمير محمد بن جهيم لم يكن له علم بمراسلة المحصورين لمحمد باشا الساقزلي طلباً للنجدة :

"وكان سلطان بن مرعي الغيباني - نسبةً إلى قبيلة الغيبان فخذ من بني مقرح - محصوراً معهم ، وكانت له صداقة مع عبدالله دباش الحسناوي ، وكان عبدالله المذكور مع الأمير محمد بن جهيم ، وكان مواصلاً لصديقه سلطان المذكور وهو محاصر ، وكان يضع له الطعام بمخلاة ويأتي به قبالة القصر فما يستطيع أحد أن ينزل إليها غير سلطان ، فإذا جنّ عليه الليل نزل إليها وأفرغ ما فيها ووضعها محلها ورجع ، فكان هذا دأب عبدالله معه ، فلما جاءهم الخبر أن المدد قرب منهم أراد سلطان بن مرعي مكافأة صديقه بإعلامه به خوفاً أن يستولى عليه إذ لا علم للأمير محمد ومن معه بهم ، فأعلمه تلويحاً بأن خاطبه : بأن العَوْدة ولدت مهراً ، فكنى عن أنفسهم بالعودة وهي المسندة من إناث الخيل لأنها لا تقدر على الكر والفر ، كما أن المحصور كذلك ، وعن المدد بالمُهْر وهي الصغير من ذكور الخيل لقوته على الكر والفر ، ففهم عبدالله أنه أتاهم مدد ، فأخبر محمد بن جهيم

بذلك فأفرج عليهم الحصار وانتقل عنهم ، وفر أمامهم متقلباً في أرض فزان إذا دخل أرضاً دخلوا فيقاتلهم حتى سئم الجميع من ذلك".

"فحضر مرابطو فزان من كل قطر ، وعقدوا بينهم صلحاً على أن يكفوا عن بعضهم ويقفوا عن القتال إلى أن يراجعوا محمد باشا ، فراجعه سيدي علي الحضيري المعداني الفقيه الشهير وأخوه كلالة سيدي حامد الحضيري وجعلوا صلحاً بينهم على أن يخرج الترك من أرض فزان ويدعوها بيد صاحبها ، ويؤدي إتاوة كل سنة أربعة آلاف مثقال ذهباً : ألفين منها تبراً وألفين يعطون قيمتها عبيداً وإماءً ، وجعلوا ثمن كل عبد ذكر خمسة وعشرين مثقالاً ، وثمن الأمة ثلاثين مثقالاً ، وثمن الخصي ثمانين ، وتحملوا بنفقة الرقيق ، وأن من مات منهم عليهم إلى أن يبلغوا سوكنة ، ومنها إلى المدينة على السلطان ؛ وكراء رواحل الرقيق على السلطان صاحب طرابلس وكل ما ذكرنا للخزانة . واشترطوا لآغة العسكر ثلاثة عشر مثقالاً وثلثاً ذهباً ، ولكتبة دار الملك سبعة مثاقيل إلاّ ثلثاً ، ولسعى النوبة والي أمرها[1] ثلاثاً وثلاثين مثقالاً وثلثاً وخصيّاً ، وانعقد الأمر بينهم على ذلك ، وبعث محمد باشا لجنده بالانتقال إن التزم محمد بن جهيم بذلك".

"فلما بلغ محمداً ما فعل الشيخان التزم بذلك وسلم له الجند في بلده . وإنم ذكرنا القصة هنا مع ما فيها وإن كان محلها

---

(1) ـ علّق ناشره أو محققه الزاوي بأنها كذا بالأصل وهي في مخطوطة الأوقاف (ولسفير) ولعلها (ولأميرها) فقد يكون الناسخ كتبها بألف محذوفة (ولمرها).

عند ذكر محمد باشا لما اشتهر من أمر كبير جنده البري عثمان المذكور فلعله يُظن أنها كانت على يديه ، ولم أقف على من ذكر أنها كانت على يديه ، ولم يزل محمد بن جهيم متولياً أرض فزان إلى أن دخلت سنة تسع وستين[1] ، فتوفي وتولى ابنه جهيم موضعه بعهد منه"[2].

هذه هي رواية التذكار ، أما رواية المنهل العذب فهي وعلى ما اقتضبت واختصرت عكست المفاهيم بما يجعلها لصالح الأتراك وحدهم فهم المتفوقون وهم المتفضلون :

"ولما سمع (محمد بن جهيم) بقدوم المدد أفرج عن البلاد وفك حصارها وذهب متقلباً في قاصيتها وتفرقت أتباعه وشردت رواحلهم . ثم بعث محمد بن جهيم إلى (محمد باشا) بواسطة الشيخ (علي الحضيري) الفقيه السبهي يستعطفه ويطلب أن يكون في أمانة ويدخل في طاعته وأن يجعله عاملاً كسائر عماله فأمنه وأحسن إليه واستعمله على فزان"[3].

وهنا ، وبعد هذا الاستعراض المسهب لمجريات الأحداث ، نعود إلى الموضوع من حيث بدأناه لنسأل عن مصير هؤلاء الخرمان الذي زُجّ بهم واستُغلّوا من الباشا محمد الساقزلي في محاولته إخضاع فزان

(1) ـ ولفت الزاوي محققه النصر إلى أنها في مخطوطة الأوقاف سنة 96 ، وهي هنا أصح ، فقد كان صاحب فزان سنة 1093 هو النجيب بن محمد بن جهيم على ما سيأتي في حينه.

(2) ـ ابن غلبون : التذكار ، ص159 ـ 160.

(3) ـ أحمد النائب : المنهل العذب ، ص237.

لدمية يقيمها ، ثم ولما فشلوا في فرض سلطانهم على سائر فزان ، كان ذلك وفي نفس الوقت حكماً على محاولة الباشا حكم فزان من خلال مسكه بخيوط الدمية ، وبالتالي لم يعد لأحمد بن هويدي وقومه الخرمان من نفع ، فهم قد أُزيحوا عن الساحة وأُبعدوا عن مسرح الأحداث وأُغفل شأنهم في اتفاقية التفاهم على قواعد للسلام وعدم الاعتداء التي عقدت بجهود المرابطين ما بين محمد باشا الساقزلي ومحمد بن جهيم كطرفين ، واعترف فيها كل منهما للآخر بحقوق مقابل التزامات ، وفيها وبعدها اختفى دور الخرمان في فزان ، وتبخر إلى الأبد حلمهم في استعادة السلطان.

• حصار فزان بالتطويق:

فزان كإقليم وفي ذاتها فقيرة ، فليس لها ما تصدره آنذاك غير التمور ، وهذه بضاعة محلية التسويق ولا تدر من الدخل ما يعد ثروة أو يكون أثرياء إلاّ نسبياً ولا يسيل لعاب أحد ولا يغري بالسيطرة عليها الباشوات ، ولكن فزان بموقعها الجغرافي ما بين أقاليم وسط القارة وشمالها وما بين مساحات شاسعة من الصحراء الكبرى من الشرق والغرب غنية بما يمر عبرها من دروب القوافل التجارية التي مارستها الأجيال ومنذ بدايات العصر التاريخي (الفينيقي ـ الروماني ـ ...إلخ).

ومحمد باشا الساقزلي ـ وهو ذو عقلية اقتصادية ـ أدرك هذه الحقيقة من فزان ، فبنى خطته على استغلال مكامن الضعف منها لإخضاعها ، وقد بدأها باحتكار الوارد منها والصادر إليها مما له علاقة

بمواد التجارة مع أقاليم السودان كما سبق وأن أوردنا من رواية التذكار.

وإذا كان تاجر المدينة المستقر سيتأثر بهذا التدبير فإن تاجر القافلة الذي تعود قطع الفيافي والقفار بحمولة إبله لن يجد كبير عناء في تغيير وجهته ، والتوجه ببضاعته إلى أسواق أخرى ليس فيها محتكر ولا احتكار ، وهكذا قصد تاورغه (مصراته)، وبنغازي ودرنة أو حتى الإسكندرية ، وقد أحس محمد باشا بهذا ، فوجّه حملة للسيطرة على تاورغه وقضى فيها على جبر بن موسى التاورغي ، وحملة على بنغازي فاستولى عليها وأبقى في كل منهما حامية مقيمة ، ولم يفد هذا ، فقد تحولت القوافل بطريقها إلى أوجلة فمصر ، واضطر إلى الاستيلاء أيضاً على أوجلة ، وهكذا طوق فزان من الشرق والشمال فلم يبق لها إلاّ أن تتحول بحمولات قوافلها إلى المنطقة التي له عليها نفوذ"[1].

وليس هذا فقط ، بل إن محمد بن جهيم وعمر المقدسي ليسا على علاقة حسنة فلأولهما ثأر على ثانيهما ينتظر القصاص ، فالطاهر الذي أغرق في البحر عمه وأمير البلد التي هو أمير عليها ، وإغضاؤه عن هذا غير محتمل بكل تأكيد ، وخوف هذا قيام الشك والريبة في أي فزاني يدخل برنوح ، وخوف وعدم اطمئنان أي تاجر من هذه لدخول الآخر تحرزاً وحيطة على الأقل . وكان على كل منهما

(1) ـ سبق لي وأن بحثت هذه القضية مفصّلةً في عمل آخر لي هو : بنغازي متصرفليك .

أن يبحث لتجارته عن طريق أوفر ضماناً لقوافله التجارية تجنبه أرض من هو آنذاك عدو له يتربص به ، وإلى هذه الفترة في غالب الظن كان فتح طريق غات التي يتحدث عنها ابن غلبون ، فهي تجنب أهل فزان اجتياز برنوح إلى ما هو واقع جنوبها وغربها من أقاليم أواسط القارة ، وتنتهي بهم شمالاً إلى تونس ، فلا يقعون في براثن الاحتكار الساقزلي ، وهي تجنب أهل برنوح اختراق فزان وتبعد بهم عن طرابلس ولذات السبب . أما طريق واداي إلى أوجلة عبر الوجنقات والكفرة فلم تطرق بعد آنذاك إذ إن اكتشافها وسلوكها إنما حدث في أوائل القرن التاسع عشر على ما سيأتي في مكانه المناسب من هذا البحث.

وهكذا نجد أن محمد باشا الساقزلي قد نجح في مخططه الرامي إلى السيطرة على تجارة فزان من خلال تطويقها بامتداد نفوذه إلى تاورغه وأوجلة وبنغازي ودرنة ، وهي أقرب منافذ فزان إلى البحر المتوسط وأسواق التبادل التجاري.

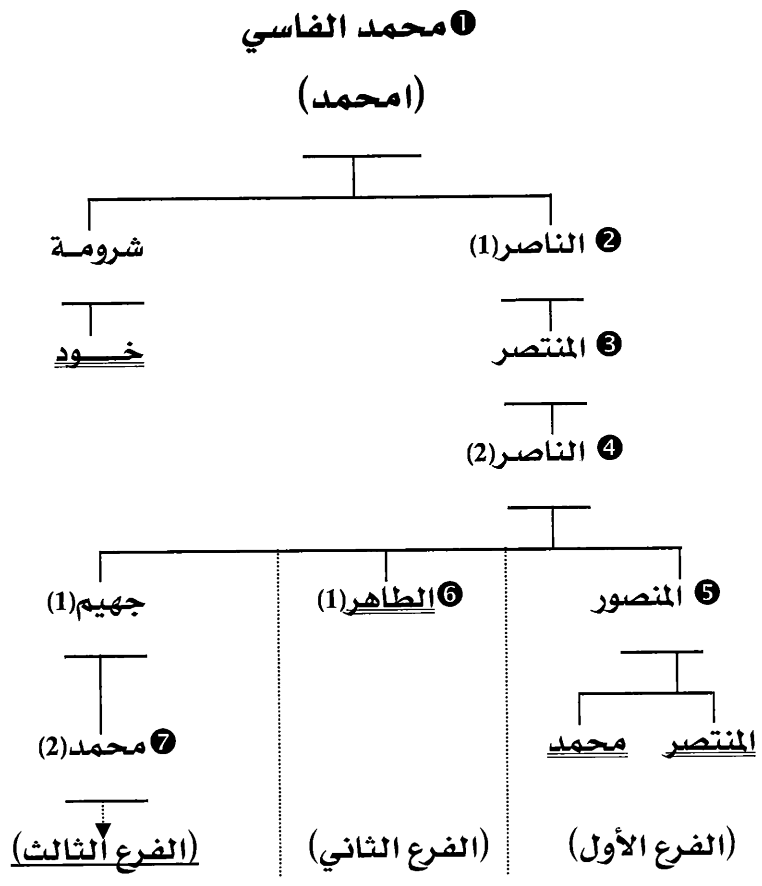
- **محمد بن جهيم:**

وهو سابع سلاطين فزان من هذه الأسرة ، إذ خلف عمه الطاهر عليها على الشكل الذي مر بنا ، وفي سنة 1044هـ (1634 ـ 1635م)، وقد استمر عهده على ما يذكر ابن غلبون حتى سنة 1069هـ (1658 ـ 1659م) أي طوال عهد محمد باشا وللسنوات العشر الأولى من عهد عثمان باشا الساقزلي ، وطوال هذه المدة لم يطرأ على العلاقة ما بينه وبين الأتراك أي تغير على ما تقرر في معاهدة الصلح التي عُقِدَت

بوساطة الحضيري وأخيه ، الأمر الذي يمكننا معه أن نصف عهد محمد بن جهيم بأنه كان عهد سلام واستقرار إذا استثنينا منه تلك الفترة الأولى التي ناضل فيها الخرمان والأتراك ، والتي لم تشغل من عهده سوى بضع سنوات .

ويمكننا اعتبار أن محمد بن جهيم هذا يعد رأس التفرع الثالث في هذه الأسرة ، ذلك أن الطاهر وهو فرع الأسرة الثاني كان عقيماً ، بمعنى أنه ابتدأ وانتهى بالطاهر بن الناصر ، وكان محمد هو ابن جهيم ثالث أبناء الناصر الذي قضى في المهجر ولم يلِ السلطنة كأخويه المنصور والطاهر ، فآل الأمر إلى ابنه محمد بعد أن أزاح عمه ابني المنصور ثم أُزيح بدوره ولاقى مصرعه ولم يكن له من عقب أو أن ابنه أو أبناءه قد لاقوا حتفهم معه ، ويبدو أن محمد بن جهيم كان بلا منافس له في السلطنة لا من إخوة ولا من أبناء عم !

1480م 1635م



إن عهد فرع "جهيم" من أسرة "أولاد امحمد" والذي بدأ بمحمد بن جهيم في حدود سنة 1046هـ (1636 ـ 1637م) مختلف عن عهد من سبقه سواء من الناحية دستورية الحكم أو من ناحية الوضع الاقتصادي للسكان والخزانة : فمن حيث الحكم كان الستة السابقون جميعهم غير خاضعين لحكم الأتراك لا بالفعل ولا بالإتاوة التي هي نوع من الاعتراف بالتبعية لمن يتقاضاها . أما محمد بن جهيم ومن

تلاه من عقبه فقد كانوا ومنذ توقيعه على اتفاقية السلام مع محمد باشا الساقزلي معترفين للأتراك بهذه التبعية ، وإن كان لهم بعد ذلك حرية السلطان يمارسونها بلا تدخل ولا قيود من أي نوع وهم قد حافظوا على أدائها سنوياً ولما يربو على نصف قرن كامل من الزمان ، وبالمقابل استطاعوا أن يحققوا لسائر فزان نوعاً من الأمن والاستقرار مما عاد على فزان في تجارتها واقتصادها بأكثر مما كان متوفراً لها في عهد صراعها ضد حكام طرابلس .

وقد نعم محمد بن جهيم بعهد سلطانه الذي امتدّ فيما ذكر ابن غلبون حتى سنة 1069هـ أي لربع قرن أو حوالي ذلك ، وتوفي بعد مرض عهد خلاله بالأمر من بعده لابنه جهيم.

- **جهيم والنجيب:**

وهما الثامن والتاسع من سلاطين أسرة أولاد امحمد ، أو الثاني والثالث من فرع أولاد جهيم من ذات الأسرة ، وقد جمعنا بينهما في فقرة ولم نفصل ما بينهما لا ـ وكما قد يتبادر إلى الذهن ـ كانا مشتركين عهداً ، فثانيهما أخ لأولهما وخليفته ، وإنما لأن التاريخ لا يقدم لنا من أحداث عهد جهيم بن محمد بن جهيم أي حادثة تاريخية تجعلنا نخصه بفقرته كما فعلنا بأسلافه حتى الآن . لقد كانت حياته وفيما يبدو استمراراً لحياة أبيه ، أو بعبارة أخرى حلقة وصل "لا هامّة" بين أبيه وأخيه . ولكن ، وحتى لا نظلم الرجل في التاريخ نرجع هذه اللاأهمية إلى رواة التاريخ لا إليه هو كسلطان ، ذلك أن

المؤرخ في عنايته بالمادة والرجال لا يهتم إلاّ بالرجل وأعماله وإلاّ بما يبحث فيه من نشاطه السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي ، ويهمل ما عدا ذلك من ملامح عهد المعني في باقي المجالات ، وقد تكون هذه هي ما يحمد له من أعمال ، وليس لنا نحن من ركيزة فيما نتناوله من حياته وأعماله غير ما تقدمه لنا تلك الروايات[1].

ولما تقدم من إغفال المؤرخين لما كان يحدث في فزان مما لا علاقة له بطرابلس وحكامها الأتراك فقد عجزنا حتى عن معرفة سنة وفاة جهيم بن محمد بن جهيم ومبايعة أخيه النجيب (أو نجيب) ولا كيف حدث ذلك ، ويصعب علينا تصور استمرار حياة الهدوء والدعة والاستقرار في فزان مع ما نعلمه من اضطراب الوضع في طرابلس وسائر الشمال الليبي وعدم استقراره سواء في صفوف الجند وقياداته أو على مستوى القبائل التي تسكنه.

وقد كان ذات الصراع على منصب الوالي والداي هو الذي ذهب بهؤلاء واحداً في إثر آخر حتى انتهى الأمر إلى حسن عبازة[2] داياً وإلى

(1) ـ قد لا يبدو ضرورياً هنا أن نشير إلى أن كلا من مصدرينا الأساسيين هنا إنما يتحيزان كليةً لتاريخ مدينة طرابلس ولا يتعارضان في الذي يرويانه من تاريخ باقي القطر الليبي إلاّ لماماً ، وبالتالي فإن روايتهما عن برقة وعن فزان ، بل وعن دواخل ذات إقليم طرابلس لا تأتي إلاّ عرضاً ، ولإبراز دور الولاة الأتراك ، وفي هذا التصرف إهمال شنيع لسائر ما يتعلق بتاريخ هذه المناطق مما لا دخل للأتراك مباشرة فيه.

(2) ـ في المنهل العذب "حسين" وهو خطأ ، وفي (المنجد في الأعلام) أن آبازة وهي عبازة كلمة تركية معناها القنقاسي أُطلقت لقباً على عدد من الحكام . ولعل الأصل في أسرة أباضة المصرية هي ذات آبازة وعبازة هذه.

مراد المالطي [1] قائداً للجند ، وكان صاحب فزان إذ ذاك هو النجيب بن محمد بن جهيم ، ولحاجته إلى المال أو لرغبة منه في الامتداد بنفوذه الفعلي إلى فزان ، ادّعى أن صاحبها لم يدفع الإتاوة السنوية المستحقة بعد وطالبه بالسداد ، فامتنع النجيب عن تكرار الدفع ، فسار مراد الأرناؤوطي على رأس حملة للجباية قسراً وكان هذا ما يريدانه ، وما دعوى عدم السداد إلاّ حجة مختلقة تعلّلاً بها وحسب . ويحدثنا في هذا ابن غلبون فيقول :

"وبايعوا حسناً موضعه وكان ذلك لثلاث بقين من شعبان سنة 1090هـ تسعين وألف وجعل مراد باي قائد الجيش ، وأقام حسن عبازة يدير أمر الناس والخزانة وتفريق الرزق ثلاث سنين وتسعة أشهر وخمسة عشر يوماً ، وكانت بيعته سنة تسعين وألف" .

"وكان في تلك المدة الغالب على دولته مراد باي ، وعظمت شوكته ، وتوجه في سنة ثلاث وتسعين وألف إلى فزان" .

"وبموجب ذلك أن صاحبه النجيب بن محمد بن جهيم امتنع من أداء الخراج زاعماً أنه أداه ، وناكره فيه متولي الخزانة وزور عليه بقاءه ، فراجع في ذلك فلم يجب إليه ، فتوجه إليه مراد وأظهر أنه يريد الجبل الأخضر حتى نزل بالجديد من أرض سرت - قصر للحسون مستقرون به وحوله بساتين يضعون به أثاثهم وما لا يمكنهم الظعن به - ولم يظهر ذلك لأحد من خواصه حتى بلغ المحل المذكور

---

(1) - ذكره ابن غلبون باسم مراد المالطي ، وكذلك هو عند فيرو في الحوليات ، أما نسبته إلى أرناؤوط (وهم الألبان) فعن النائب في المنهل العذب ، وهو خطأ وقع فيه.

أخبرهم ، وجردت خيله فصبحت سوكنة وودان بعد ثلاثة أيام ... [وصف واحات الجفرة الثلاث]...".

"وخرج مراد من أرض ودان عاجلاً ولم يعلم أحد خبره حتى أتى سبهة وأحاط بها فلم يفلت منها إلاّ فارس واحد فرّ منها لجهة مرزك . فلما أحس بذلك ارتحل من وقته ولم يبت بها ليدخل مرزكاً على حين غفلة من أهلها فسبقه الفارس إليها فأخبر أهل مرزك بدخوله سبهة ، فخرج النجيب بما تيسر له من الجند فالتقى الفريقان بدُليم - قرية صغيرة بينها وبين مرزك نحو ست ساعات أو خمس - واقتتلوا قتالاً شديداً فكانت الهزيمة لمراد عليهم وقتل النجيب واستأمن إخوته ، وقاتل ابن أخيه علي عند أبيه لما أثخنته الجراح وكسر حتى ماتا ، وجرح محمد الناصر وأثخنته الجراح . وكان مراد أوصاهم عند اللقاء ألا يضروه ، وتوعد من يضره بالقتل ، فلما أثخن مسكوه ورفقوا به ، وقدموا مرزكاً واستولى على خزانتها فألفى فيها من المال كثيراً ، وطبب الناصر وأظهر الأسف عليه ، وبعد سبع من دخوله ولاه البلد وأقام بها واحداً وعشرين يوماً ولم يغير على التجار والرعايا بشيء لامتلاء يده بالخزانة ، ثم ارتحل عنها ، وأسقط عن الناصر خراج ثلاث سنين إلى أن يستقر حال البلد"(1).

وقد أخذ هذه الرواية شارل فيرو فتصرف فيها بخياله وأضاف من عنده على عادته في تشويه صور الأتراك وسوء حكمهم للبلاد

(1) - ابن غلبون : التذكار ، ص182 - 184.

وكلما وجد فرصة ليفعل ذلك ، وفيما يلي كامل روايته (ترجمة الوافي):

"وفي زحمة هذه الأحداث بدا لإقليم فزان مرة أخرى أن الوقت قد صار ملائماً للامتناع عن دفع الخراج الذي فرضه عليهم دايات طرابلس . وكان عامل فزان في ذلك الوقت هو النجيب بن محمد بن جهيم . وهي فرصة رأى قائد جيش الانكشارية مراد أنها مواتية لأن تكون فاتحة يدشن بها مسؤولياته العسكرية الجديدة . ورغبة منه في ذر الرماد في العيون وإخفاء قصده ، فإنه ادَّعى أنه متوجه إلى بنغازي ودرنة . لكنه عاد عند وصوله إلى منطقة الجديد الواقعة في منطقة سرت ، فإنه حوّل وجهته فجأة وسار في الطريق الموصل إلى سوكنه وضاعف من سرعته حتى تمكن من مفاجأتها بعد ثلاثة أيام هي وبلدة ودَّان ، فاحتلهما ، ثم احتلّ مدينة سبها وعاث في أهلها تقتيلاً ، فلم يتمكن من الإفلات منه سوى فارس واحد انطلق بسرعة إلى النجيب بن جهيم يخطره بهذه الأحداث المفجعة . وسارع هذا الأمير بحشد عدد قليل من الأنصار ، ثم غادر بهم مرزق لمقاتلة مراد بك . فالتقى الفريقان بقرية دُلَيْم التي تبعد عن بلدة مرزق بمسافة ستة فراسخ . وبعد معركة حامية الوطيس هلك النجيب بن جهيم هو وعدد من أبناء عمومته . ودخل مراد بك إلى مرزق منتصراً فاستولى على خزانتها التي وجد بها ما يُقدَّر بحمولة خمسة عشر جملاً من الذهب ، وسمح لجنوده بنهب البلدة فاقترفوا كل ما استطاعوا اقترافه من أعمال التخريب والوحشية . وأسروا فيها ما لا يُحصى ولا يُعد من

الزنوج ما بين ذكور وإناث . وأقام مراد بك بمرزق واحداً وعشرين يوماً، وبعد أن أشبع تعطشه للثأر وأروى جشعه بما فيه الكفاية ، فإنه توجه بجيشه إلى طرابلس ، بعد أن عهد بحكم فزان للناصر ـ شقيق عاملها المقتول نجيب ـ فترك له بذلك بلداً خربت تجارتها وصناعتها وإنتاجها ، مما جعل هذا الحاكم الجديد يقرر إعفاء أهاليها البائسين من دفع الخراج لمدة ثلاث سنوات حتى تستقر أحوالها"[1] .

وإذا كان شارل فيرو يفعل هذا في روايته ويحاول تضخيم مساوئهم ، فإن النائب وفي المنهل العذب ـ ولِمَا أوضحناه حول هذا الاتجاه منه ـ يحاول التغطية على تصرفات الأتراك الموجبة للنقد والمؤاخذة ، وقد روى ذات الحادثة (ومصدره فيها التذكار) على النحو التالي :

"وفي هذه السنة أعني (93) ثلاث وتسعين امتنع (النجيب بن محمد بن جهيم) عامل فزان من أداء الخراج وزعم أنه أداه وعاد إلى حاله من مصارفة الاستبداد فنهض إليه (مراد بك) الأرنأوطي في العساكر مورياً لمشارفة (برقة)، ولما انتهى إلى (الجديد) أظهر لأمراء الجنود قصده ، ثم ارتحل بهم إلى نواحي (فزان) وفي اليوم الثالث وصلوا ودان ... [يصف هنا مجارياً للتذكار واحات الجفرة الثلاث ، إلاَّ أنه يصف الطريق إليها من سرت ومن طرابلس مقدماً مادة جديدة] ..."

"ثم لحق مراد بك لقرية (دليم) فزحف إليها العامل في

(1) ـ شارل فيرو ، ترجمة الوافي : الحوليات ، ص256.

جموعه وتواقعوا فهلك النجيب واختلّ مصافه واستأمن إخوته (مراد بك) فأمنهم".

" ثم قدم مرزق وتبوّأها وضبط خزانتها ولم يغير على التجار والرعية لامتلاء يده بما وجده وبخزانة العامل ، ولما تمهد الهناء استعمل عليها (محمد الناصر) وانقلب مؤبداً"[1].

وهكذا نجد أن الأتراك تدفعهم الحاجة إلى المال الذي أتت عليه انقلاباتهم قد تحرشوا بفزان وزحفوا إليها واستولوا على واحاتها وسلبوا أهلها إلى حد قناعتهم بأنها ولما ألحقوه بها وبأهلها ستعجز عن دفع أية إتاوة لبضع سنوات فأعفوها لثلاث ، ومع هذا فإن ابن غلبون يقول :"ولم يغير على التجار والرعايا بشيء لامتلاء يده بـ[أموال] الخزانة"، وبالطبع فإن هذه التبرئة للغزاة يلغيها قوله بعد ذلك :"وأسقط عن الناصر خراج ثلاث سنين إلى أن يستقر حال البلد". أما فيرو فإنه قد أطلق لخياله وقلمه العنان فجاء بتلك التفصيلات التي لا مصدر له فيها تأكيداً غير ذات ابن غلبون والتذكار. أما النائب فإنه يصف عمل مراد وجنده بأنه ضبط للخزانة ، وسكت عن إسقاط

---

(1) ـ أحمد النائب : المنهل العذب ، ص256 ـ 257. وهنا نشعر بضرورة إيضاح أننا في إيرادنا للرواية عن مصادر ثلاثة لكل منها اتجاهه والتيار السياسي ـ الفكري المؤثر عليه ، وفي كامل نصها ، على الرغم من إمكانية تقديمنا للحدث في رواية لنا تستند على ثلاثتها ، لأننا نستهدف من ذلك رسم الطريق لمن يدرس تاريخنا في كيفية المقارنة والتقييم والاستقراء ، وقد تخيرنا هذه كمثال للاتجاه الطرابلسي (ابن غلبون) والأوروبي (فيرو) والعثماني (النائب)، ومعنى هذا أنه ليس بينها رواية الطرف الثاني (رواية أهل فزان) وأن على دارس التاريخ استقراءها.

الإتاوة (الخراج) لسنوات ثلاث.

في هذه السنة 1093هـ (1682 ــ 1683م) وفي معركة دليم ، سقط النجيب بن محمد ، وسقط أخوه (ما اسمه؟) وابن هذا عليّ ، أما الناصر بن محمد[1]، فعلى الرغم من اشتراكه في القتال ضد الأتراك ، فإن مراداً وفيما قال ابن غلبون ـ قد أراده خليفة للنجيب فأوصى جنده "عند اللقاء به ألا يضروه ، وتوعد من يضره بالقتل"، ولهذا فإنه لما "أثخن مسكوه ورفقوا به"، وفي هذا ما يحملنا على الظن بأن اتفاقاً من نوع ما كان متخذاً في السر بأن يخلف هذا الناصر أخاه النجيب بعد الإطاحة به ، الأمر الذي يجعل اشتراكه وجراحه مجرد عملية إخراج للانقلاب المدبر منه والمخطط له من قبل.

• الناصر بن محمد بن جهيم:

وهو عاشر أمراء أو سلاطين فزان من أسرة أولاد امحمد ، خَلَفَ أخاه النجيب سنة 1093هـ (1682 ـ 1683م) وإن بتنصيب مراد المالطي له على ما تقدم بيانه ، وكان هذا ومن وجهة نظر الفقه الدستوري

(1) ـ في الأصل (التذكار): محمد الناصر ، وقد عكسناه لأنه عاد فسماه الناصر ، ولأن والد هذا هو محمد بن جهيم والد النجيب وليس من المعتاد أن يُسمى الابن باسم أبيه اللهم إلاّ إذا كان اسم محمد ليس هو ذاته الاسم العلم المقصود فالأدارسة خاصة وبوجه عام كانوا يضيفون إلى اسم الشخص محمداً لمجرد التبرك به ، فالجد محمد ، والابن الأول كالثاني محمد واسم الحفيد أيضاً محمد إلاّ أن المعين لكلٍّ هو الثاني بعده وليس هو ، فمحمد الناصر على هذا هو الناصر بن محمد بن جهيم.

على الأقل ، مرحلة جديدة من تاريخ فزان وتاريخ هذه الأسرة معاً ، فالإقليم فقد استقلاله وصاحبه وإن كان لايزال من ذات الأسرة مجرد تابع يأتمر بأمر الداي أو الباشا التركي شأنه شأن أي عامل يختار من أعيان الناس ، يثبت ويعزل حسب المصالح والأهواء والآن.

وإذا أُعيد أمر البلد إلى أحد أبناء هذه الأسرة فإن هذا قد تم بعد إذلاله بالأسر ، وإلحاق الأذى في جسده بالجراح فكان ذلك تفضلاً، ولم يعد وللأسرة قوة مادية ، فالبلد قد سلبت ثرواته والخزانة لم يترك فيها محبوب واحد كرصيد . ومع هذا فإن إعادة الناصر وهو أخ لجهيم وعم للنجيب ربما لأن القائد التركي على قناعة (من التجارب السابقة) بأن آخر من غير هذه الأسرة سيلقى معارضة وعنتاً وستثور البلد عليه وعلى الأتراك ، ولم يدرك مراد أن القضية ليست الولاء لذات الأسرة وأياً كان الاتجاه بقدر ما هو لما يمثله الحاكم منها من إرادة ذات الشعب ورغبته إلاَّ حين يغلب على أمره ويُغلبون معه كشعب ، ولم يكن الناصر الذي نصبوه بالغافل عن هذه الحقيقة على ما سيأتي من أمره في علاقته مع ناسه ومع الأتراك ، إلاَّ أن الرجل كان داهية سياسية ، ويعرف لذلك متى يحني رأسه للعاصفة ومتى يرفعها، وقد خرج سليماً من عواصف بعد الأولى واستطاع أن يبقى سلطاناً على فزان حتى الوفاة وأورث ابنه ما ورث هو عن أبيه.

وقد يكون من الأفضل هنا أن نجزّي عهده إلى فترات ست ، والحديث عن كل منها على حدة ، وهذه هي :

1 ـ فترة ما قبل تمره ، وقد امتدّت ثماني سنوات.

2 ـ فترة اعتقاله وتولي محمد المكني "الغزيل" لفزان.

3 ـ فترة منازعة المكني بتمام بن محمد بن جهيم.

4 ـ فترة منازعة الأتراك بمحمد بن جهيم.

5 ـ فترة إعادة الناصر لحكم فزان من منفاه.

6 ـ فترة مقاومة أحمد باشا القرمانلي.

وأولى هذه الفترات قد بدأت ـ وكما رأينا ـ باحتمال تواطئه مع مراد على أخيه النجيب وهو احتمال مبني على قرائن وشبهات كما قلنا وليس على نص يدينه بهذا صراحة ، وقد رأينا كيف أنه كان فيها حافي الرأس لضعفه وفقر بلاده بعد سلب الأتراك لما في الخزانة وبيد الناس من أموال إلى حد العجز والإفلاس . ومن الواضح الجلي أنه ما كان به أن يحرك ساكناً آنذاك فسكن واستكان حتى استعاد هو وقومه بعض القوة ، إلاّ أنه ما إن أحسّ بالقدرة (بعد ثمانية أعوام) حتى امتنع عن أداء الإتاوة المفروضة وخرج بالبلد معلناً تمرده على طرابلس وكان الباشا عليها سنة 1101هـ (1689 ـ 1890م) هو محمد الإمام الملقب بشائب العين . ويبدو أن الناصر كان همه أن يحشد حوله من القوة الكثير أو هذا ما ندركه من عبارة ابن غلبون : "وأعجب بكثرة باديه وحاضره"، فهي تعني أن سائر شعبه قد كان معه يؤازره ويشترك معه.

ولنترك الحديث عن نتيجة هذا الخروج بالبلد عن الأتراك لابن غلبون فروايته للحادثة في التذكار مغنية بذاتها عن أي مقال لنا أو تعليق إلاّ ما نرتئيه من هامش يزيد في الشرح والإيضاح :

"وفي أيامه سنة 1101م إحدى ومائة وألف امتنع الناصر صاحب فزان من إعطاء الخراج وأعجب بكثرة باديه وحاضره ، فوجه إليه جنداً كبيره يوسف بيك[1]، ومشى على جهة تاورغاء حتى نزل على مرزك ، فخرج له الناصر واقتتلوا قتالاً شديداً خارج البلد ، وكانت الواقعة ليوسف على الناصر ، وكانت في اليوم الثاني للناصر على يوسف ، وفي الثالث تكافآ"[2].

"وكان بالمحلة أولاد المُكني : علي ومحمد الغُزيِّل وهم المغرون بالناصر محمد الإمام والمحسنون له بالخروج إليه[3]، فلما فهم يوسف ذلك توعدهم بالشر ، فراسلوا خفية إخوة الناصر وأبناء إخوته وأكابر جنده ، ووعدوا كلا بالملك بحيث لم يدر كل بما روسل به الآخر ، فأصبحوا بالمحلة من غير علم من أحد بالآخر"[4]. فسُقط في يدي الناصر ، وعلم أن ملكه هُدَّت أركانه ، فراسلهم بطلب الأمان له ولوزيره المسعودي ولمن معه من حاشيته بادٍ وحاضر. فراسل يوسف

(1) ـ ويوسف بيك هذا هو ابن لأحمد المكني وأخ لعلي ولمحمد الغزيل ، وهو وفيما يبدو كان الأكبر بين إخوته ، فإن لم يكن فهو على التأكيد أقواهم نفوذاً وإن كان دونهم فطنةً ودهاءً.

(2) ـ ومعنى هذا أن الطرفين كانا متقاربين قوةً ، وربما كان الناصر أقوى ، وربما ما كان ليهزم لولا المكر والخديعة وبث الفرقة في صفوفه على ما سيأتي.

(3) ـ تطلعات هذه الأسرة لحكم فزان وإن بدأت بهذين فإنها قد امتدّت حتى عهد يوسف باشا وهي التي قضت في النهاية على آخر أسرة أولاد امحمد بعد ما يربو على القرن وربع القرن من هذا التاريخ.

(4) ـ هذه الإشارة العابرة نحس معها بأن أفراد الأسرة ـ وهو أمر طبيعي ـ كانت تراودهم أحلام السلطة ، كما تفصح عن علم إخوة المكني بهذه الميول.

قاضي الناصر حماد بن عمران وأعطاه الأمان على يديه ، فخرج من قصره حتى أتاهم ، فلما أتاهم دخلوا البلد وتولى يوسف خزانته ، ثم لم يوفِ للناصر وللناس بالعهد ، فعذب الناصر والقاضي وابنه والتجار، ونهب أموال الناس وهتك حريمهم ، واستولى على من ظن به المال ليعذبه ، وكان من جملتهم تاجر من برنوح ".

"ووكل بتعذيب الناس مصطفى البسكري الملقب بأبي خشيم ، وكان شديد العداوة للمسلمين . فلما رأى ذلك التاجر ما حلّ بالناس من العذاب بالنار ، سأل رجلاً بإزائه مكتوفاً من أقارب القاضي المذكور يلقب (البحباح) بباء موحدة وحاء مهملة ثم باء موحدة بعدها ألف لينة بعدها حاء مهملة : هؤلاء الخلق نراهم يفعلون هذا ، أهم من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ فزجره عن ذلك خشية أن يسمع منه ذلك من يفهم فيزيدون في العذاب . فلما سمعهم الموكل بالعذاب يتكلمون سأل البحباح عما قال ، فأبى أن يخبره ، فتوعده إن لم يخبره ، فأخبره أنه سأله عن القيامة ، وقال إني لم أسمع بهذا العذاب إلاّ في زبانية جهنم ، أهؤلاء هم الزبانية ونحن متنا ونشرنا ؟ أم الزبانية تأتي الخلق قبل موتهم ؟ فلما أخبره بذلك رفع عنهم العذاب ، وراجع يوسف برفعه وكانت تلك الكلمة سبب النجاة".

"ولما أراد يوسف النقلة عنها أراد أن يستخلف عليها محمداً الملقب بالغزيّل ـ بالتصغير ـ فأخرجا له كتاب الأمير محمد الإمام بتولية محمد الغزيل أرض فزان فانكف عما أراد ، ورحل عنها واستصحب معه الناصر ووزيره المسعودي ، فلما بلغ المدينة سجنهما بها

وأجرى عليهما من الرزق ما يكفيهما ومكثا بالسجن خمسة عشر شهراً".

<u>أما ثانية هذه الفترات</u> ، فربما كان الأفضل فصلها عن عهد الناصر واعتبارها عهداً قائماً بذاته ؛ لأن الناصر خلالها كانت يده مكفوفة وهو مبعد عن مرزك ومحتجز ووزيره المسعودي بطرابلس ، والناجي من "أولاد امحمد" قد التجأ بأهله إلى السودان ، والمتولي للأمر غير الناصر ومن غير الأسرة معاً ، غير أننا لم نفعل وآثرنا ما أتيناه لأنها فترة معترضة وكأنها قد زُجَّ بها داخل العهد الذي قبلها وعاد فاستؤنف بعهدها ولم تطل هي فقد انتهت عملياً بعد خمسة أشهر بمقتل من تولى أمر فزان ، هذا من جانب ، ومن آخر : فإن الناصر ـ ومن حيث الواقع الدستوري ورغم إبعاده عن السلطة ـ لايزال هو السلطان الشرعي لفزان ، فهو قد وثق بالعهد المقطوع ففتح أبواب مرزك وهو سلطانها ، واحتجز ـ ربما حماية له في شخصه ـ ولم يتنازل هو ، وكانت إعادته في ذاتها دليلاً باعتراف الباشا محمد الإمام بأنه لم يسلبه حقه الشرعي في هذا السلطان.

وقد يبدو غريباً القول بأن الصراع الدائر في فزان كان وبالدرجة الأولى اقتصادياً أكثر منه رغبة عثمانية للتوسع بالنفوذ والسلطان إلى هذا الإقليم ، ونعني بهذا أن المحرض عليها كانت تلك البيوتات الغنية المالكة للثروة في البلاد ، من أمثال أسرة فشلوم ، وأسرة الدغيس ، وأسرة المكني ، التي كانت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من أبرزها وأظهرها طموحاً وتطلعاً للمناصب العليا والقيادية لا

للجاذب الذاتي فيها وإنما لكي تحقق بها ومن خلالها مزيداً من التفوق في المنافسة ومزيداً من الثراء . من هنا ولهذا فإن يوسف المكني قائد الجند كان مصحوباً بعلي وبمحمد الغزيل ، وهذا الأخير يخلف الناصر كعامل محمد باشا الإمام على فزان فيجثم على مواردها ويستشري وعليّ معاً في استنزاف ما لم تسلبه فزان من ثروات الناس فيها ، وغاليًا في هذا إلى حد لم يحتمله الناس فثاروا وحاصروا محمداً في قلعتها ولم يطلبوا ممن معه سواه على ما رواه ابن غلبون :

"... منها خمسة [كان] محمد المكّني مقيماً بفزان والياً ، فلما تمت الخمسة شهور قام عليه أهل البلد بعد أن أخرج منها من سلم من أولاد جُهيم وحاصروه بقلعتها ثلاثة أيام ، ثم جُرح وهو بها وأنفذت مقاتله ، فلما علم أصحابه ذلك طلبوا الأمان فأمنوا وفتحوا القلعة ودخلها أهل البلد ، ووجدوا بمحمد رمق الحياة ، فربطوا برجله حبلاً وجذبوه إلى خارج القلعة ، وكان وقت ولايته قطع يد رجل من أهل البلد فأحضروه وأمروه بقطع يده ، فقطعها ومثّلوا به"[1].

عبارات تعكس في غاية الوضوح مدى ما أحس به الناس من قساوة المكني واشتداد جبروت عنفه ، وروح التشفي والحقد التي بدت سافرة في جره بحبل من رجله (معاملة الجيفة) وقطعوا يده (عقوبة السارق الشرعية)، ثم مثلوا بجثته بعد الموت ، وهو غاية الحقد الأسود الذي لا يكتفي من عدوه بالموت وحسب.

---

(1) - ابن غلبون : التذكار ، ص194 و195.

وهنا نعود لنذكر بما حدث لأول حاكم تركي "مامي" وما لاقاه الحاكم التركي الثاني "حسين النعال" لنؤكد رفض فزان لأن يكون حاكمها من غير بنيها حتى ولو لم يكن هذا من الأتراك ، بل حرص هؤلاء الناس على أن يكون الحاكم من أبناء ذات الأسرة ، ولهذا فإنهم ما إن تخلصوا من محمد المكني وحاشيته حتى فكروا في استدعاء أحد أبناء الأسرة وهو تمام بن محمد بن جهيم أخو الناصر المحتجز في طرابلس منذ خمسة شهور.

<u>وثالثة ورابعة هذه الفترات :</u> تبدآن بمقدم "تمام" بن محمد بن جهيم وابن أخيه جهيم "محمد" من السودان ، ويحدثنا ابن غلبون عن هاتين الفترتين فيقول :

"وراسلوا تمام بن محمد ومحمد بن جهيم بأرض السودان ، فقدما عليهم وبايعوا تماماً وراسلوا محمد باشا بأنهم التزموا بالخراج، فحثه أولاد المكني على الأخذ بثأرهم ، ودبروا له رأياً وهو أن يرسل النوبة ويجعل واليها علياً المكني ويعين معه جماعة من الجند شبه تجار حتى يقدموها ويخدع من بها من أولاد محمد وأعوانهم ، واستعان بأهل بن وليد من أورفلة وأتباعهم ، فلما قربوا من البلد لم تخفَ حيلتهم على محمد بن جهيم ومن معه من كبراء جنده ، فخرجوا وراودوا تماماً على الخروج معهم ، فأبى عليهم ، اعتماداً على مراسلة علي وأخيه المصري له بأنهم أتوه بالخلع والتجديد من حضرة الأمير محمد باشا الإمام ، وبعثوا له بلقائهم بمن معه من كبراء جنده وأولاد الملوك ، وأمر أصحابه بالتأهب لقتلهم إن قدموا ، ظناً منه أن ما

احتال به خاف عليهم ، فخرج للقائه تمام وحده ، فلما رأى ذلك سقط في يده فدخل عليّ وأخوه البلد وأقاموا بها سنة ويده مرفوعة عن التصرف".

"ولما بلغ محمد بن جهيم وادي الخرمان ، بايعه من معه على قتالهم ، وكان عليّ خرج في غازية في أثرهم وليس عنده خبر وصولهم الوادي ، فلما نزل بإزاء قلعة بالوادي ، هجم محمد وأصحابه عليهم وأخذوا أسلحتهم ومتاعهم وقتلوا بعضهم ، ولم يفلت علي إلا في نفر قليل ، وخرجوا في أثرهم حتى أدخلوهم مرزكاً ، فدخلها محمد بن جهيم وأصحابه ليلاً ، وأخرجوا تماماً وأحاطوا ببيت علي . فلما أصبح طلب الأمان فأُعطيه على شرط أن يرد ما أخذ من خزانة الناصر ، فردَّ ذلك وراسل أخاه يوسف بالقدوم عليه بعد أن أخرجوه منها وإخوته إلى القصر الأحمر بسبهة . وكان قتل محمد المصري من البوادي أيامه ، وولوا رئيساً عليهم جبراً القلفاط السليماني ، فحاصروه بالقصر إلى أن أدركهم يوسف في خمسمائة فارس من الجند صرف عليهم من نفسه"[1].

والمتدبر لهذه الرواية يخرج منها بقناعة أن سائر هذه القضية قد بدأها إخوة المكني وكان همهم الأول والأخير أن تخلص لهم فزان ، إلاَّ أنهم وقد فشلوا في محاولاتهم جميعها وانكشف لمحمد باشا الإمام سوء مقصدهم أبعدهم عنه ، وأعني يوسف المكني من قيادة العسكر ،

(1) ـ ابن غلبون : التذكار ، ص195 و196.

وقلّدها خليلاً الذي كان آنذاك صهره وموضع ثقته ، واستدعى الناصر ووزيره فأعادهما قانعاً إلى فزان ، وإلى ما كانا عليه من عهد والتزام ، وكانت تلك بداية الفترة الخامسة ، وقد حددها ابن غلبون بيوم الجمعة 24 ذي القعدة من سنة 1108هـ (1697/6/15م) ومعنى هذا أن ما بين بدء تمرد الناصر وبين عودته سبع سنوات ، وهو ما لا ينسجم وما ذكره ابن غلبون نفسه من أن فترة احتجاز الناصر في طرابلس كانت خمسة عشر شهراً وحسب ، إلاّ أن هذا التناقض يمكننا رفعه باحتمال أن حملة أولاد المكني قد تأخرت إلى سنة 1105هـ (1693 ـ 1694م) أو إلى التي بعدها ، وأن ابن غلبون قد ساق الرواية رابطاً ما بين السبب وما تلاه دونما اهتمام منه بذكر ما بين بداية ونهاية الحوادث من تواريخ أو هو يأتي مثل هذا في الكثير من الحالات.

أما النائب فإنه وقد انتبه لهذا الأمر فإنه قد جعل امتناع الناصر عن تأدية الخراج في سنة 1106هـ؛ وذلك كي لا يطيل في فترة تقاعس طرابلس عن تسيير حملتها ضده إذ فيه ما فيه من مأخذ على الأتراك.

ولم يلقَ الناصر على ما يبدو رافضاً لسلطانه وقد سلم الجميع له به ، بل إننا نجد في رواية ابن غلبون ذاته ما يفيد بأن محمد بن جهيم كان يعتبر الناصر عمه هو صاحب العهد الشرعي "...على شرط أن يرد ما أخذ من خزانة الناصر"، هكذا وحتى والناصر بعيد عنها ومحتجز منذ أكثر من عام ، فالخزانة ـ وهي العامة ـ منسوبة إليه لأنه لايزال في نظر ناسه هو السلطان الشرعي لفزان.

وعلى كلٍّ ، فإن الناصر قد عاد من منفاه ، واستمر سلطاناً يمارس حكمه لفزان وإقامته بمرزك لفترة طويلة أخرى من الزمن ، وكان كذلك 1128هـ (1715 ـ 1716م) أي حينما وطد أحمد القرمانلي حكمه والتفت لبسط نفوذه على أطراف بلاده ومن بينها بالطبع فزان ، فقصدها ليجبي الإتاوة أو الخراج ، وهي <u>الفترة السادسة</u> من عهد هذا السلطان المديد ، والتي يمكننا تحديدها عموماً ببداية العهد القرمانلي.

والذي يطالع تأريخ طرابلس في أواخر العهد العثماني الأول لا يخفى عليه ذلك الوضع القلق الذي يجعل من قضية أداء فزان لما عليها من خراج لطرابلس مسألة تكتنفها المخاطر وقد تستعصي على الحل ، فلا الطريق مضمونة ولا الولاة بالمستقرين لأمد معقول يسمح للناصر بالسداد حتى ولو أنه أراد ، وتأخره في هذه الحالة عن دفع ما عليه لسنوات يجعل هذا الخراج يتراكم إلى حد يصعب سداده دفعة واحدة حينما يصبح هذا ممكناً باستتباب الأمن واستقرار الوالي في منصبه.

وهذا ما نعتقد أنه حدث في سنوات (1709 ـ 1714م)، فقد كان الخراج المتراكم على فزان عن ست سنوات يصعب إن لم يستحل سداده على الناصر وخزانته ، إلاّ أن ابن غلبون في التذكار لم ينظر إلى الموضوع من هذه الزاوية ، وإنما هي عنده مجرد تمنع عن السداد وتمرد على السلطان الذي يعطيها عادةً هذا المفهوم.

وهكذا نجده يروي قصة جباية الأموال المترتبة على فزان على

الشكل التالي :"ولما استقر [أحمد باشا] زين له علي المكني[1] التوجه إلى فزان وحثه على ذلك ، فتوجه إليها حتى نزل على مرزك وحاصرها أياماً نحو العشرة ، ثم قدم عليه خبر أزعجه[2]، فارتحل عنها ورجع إلى المدينة أواخر سنة ثمان وعشرين ومائة وألف"[3].

وقد عاد - أو على الأصح - واصل روايته فقال :" ثم راسله صاحب فزان[4] مع خواص بلده وأرباب البيوت منها ، وتلطف أن يقبل منه الخراج ، فقبل منه إلى أن ظهر منه من قلة الأدب ما يوجب التوجه إليه فتوجه إليه[5] بعد أن أخمد فتنة علي بن عبدالله بن عبدالنبي بعد عوده لمثل ما كان عليه (بدريدر) - ماء مورود - وكان أخذه له على يد

---

(1) - يبدو أن لابن غلبون على أسرة المكني حفيظة ، فهو هنا أيضاً يحمل "علي المكني" مسؤولية توجه أحمد باشا القرمانلي ضد فزان ، وهو ما سبق وأن فعله عند الحديث عن حملة يوسف المكني ومحمد ونفس علي بأمر من محمد باشا الإمام ، ولكن إذا جاز لنا احتمال ذلك بالنسبة لمحمد باشا الإمام لما يعرف عنه فإن تصديق هذا صعب بالنسبة لأحمد باشا القرمانلي لما يُعرف عنه من قوة الشخصية وذاتية القرار.

(2) - وهذا الخبر الذي أزعجه هو خروج علي بن عبدالله بن عبدالنبي عليه ، وقد عاد فذكره فيما بعد على ما سيأتي من بقية روايته.

(3) - ابن غلبون : التذكار ، ص257.

(4) - لم يسمه باسمه هذه المرة ، ولكن كلاً من شارل فيرو في حولياته ورودلفو ميكاكي في كتابه عن الأسرة القرمانلية ذكراه باسمه الناصر ، بل إن الثاني ذكر سنة وفاته بعد هذا بسنتين .

(5) - ظاهر كلام مؤرخنا هنا أن من أبدى ما يوجب التأديب هو ذات الناصر ، ولكن الأمر كان غير هذا ، فالناصر قد توفي وخلفه ابنه أحمد وهو الذي رفض سداد ما على فزان من خراج على ما سيرد بعد قليل ، ولهذا فإن الضمير في (إليه) عائد على (صاحب فزان) وهذا قد يكون الناصر كظاهر الرواية وقد يكون ابنه فهو أيضاً صاحب فزان مذ خلف أباه.

صاحب خيله أخيه الحاج شعبان باي، فوافاه ولم يخرجوا له من السور، وأقام عليها مدة قليلة ، وأباح نهب بعض البلاد التي لم تجب دعوته كالقطرون - إقليم تحت ولاية صاحب فزان ، كثير النخل والزراعة ، يرده أهل كاوار ومن حوله من جفاة السودان ، وأهل النوبة قليلاً - ثم رجع ولم يصب من مرزك - محل كرسي صاحب فزان - في تلك المرة ، وكان ذلك في المحرم سنة 1131هـ إحدى وثلاثين ومائة وألف . وكان كبير الجند الذين أرسلهم لنهب القطرون وأخذها إبراهيم الملقب الترياقي الكول أوغلي ، فأصاب منها مالاً كثيراً اختصّه لنفسه ، ولم يعاتبه أمير المؤمنين على ذلك"[1].

حملتان لأحمد باشا القرمانلي على فزان لم يوفق في أيهما ، وابن غلبون قد وجد العذر في الأولى سنة 1128هـ (1715 ـ 1716م) الخبر المقلق ، وغطى في الثانية على فشل الحملة بتصرف الترياقي وتجاوز الأمير عنه .

أما ميكاكي في كتابه نقلاً عن فيرو ورجوعاً إلى مصادر أخرى ومراسلات القنصل الفرنسي ، قد جاء بالحملة الأولى منسوبة إلى الناصر ، ومشيراً إلى تعهده بالدفع مع عدم الالتزام بالفورية (التقسيط؟) وإلى أن أحمد باشا قد تساهل معه وكان حليماً ، وحدد عودته إلى طرابلس بأنها في نوفمبر من سنة 1716[2]. أما عن الحملة

---

(1) - ابن غلبون : التذكار ، ص257.

(2) - Micacchi, R. : La Tripolania sot to il Bominio dei Caramanli, Airoldi intra, 1936, pag.31.

الثانية فقد قال ما ترجمته :"وعلى كل فإن حالة استقرار البلاد لم تدم طويلاً : ففي سنة 1719م اضطرّ الباشا لأن يسير حملة جديدة ضمن فزان ، إذ كان محمد الناصر[1] قد توفي آنذاك ، وخلفه ابنه أحمد الذي رفض دفع الإتاوة ، ولم تكن هذه الحملة التي لم تعد بما يكفي بقادرة على التغلب على الدفاعات التي أقامها الثائر"[2].

ومن هذه الرواية ومن هذا الذي سيصبح مصدرنا الأساسي لتوقف التذكار بروايته عند هذا الحد ، نجد أن الفترة السادسة والأخيرة من عهد الناصر هي تلك التي يمكننا حصرها بعهد أحمد باشا القرمانلي الأول وبالدقة ما بين سنة 1711 وسنة 1718م من عهده، وعلى هذا فإن الناصر قد مات ولم يخضع له على الشكل الذي خضع به ابنه وحفيده للقرمانلي.

• أحمد بن الناصر:

وهو الحادي عشر بين سلاطين هذه الأسرة ، خَلَفَ أباه الذي توفي سنة 1718م، أو بتعبير أكثر تحديداً قبل سنة 1719م وقبل سنة

---

(1) - والمعني به ذات الناصر بن محمد بن جهيم (راجع الهامش 1 ص148).

(2) - Micacchi, R., Op.Cit. p. 34.

وقد أغفلنا عهد تمام بن محمد بن جهيم الذي لم يكن في عهده القصير غير حاكم لفزان بالوكالة ، علاوةً على أنه في أغلب الفترة كان مكتوف اليد ، كما أننا لم نعتبر لمحمد بن جهيم بن محمد بن جهيم أي عهد ، فقد كان مجرد مناضل لإعادة عمه الناصر ، وحامياً لعمه تمام ، ولأنهما معاً كانا جزئية داخلة في عهد الناصر الذي كان قبلهما واستمر بعدهما وفي الحالين بزمن طويل.

1716م[1]. وليس في الإمكان بما تحت أيدينا من مدوّن التاريخ ما يمكننا من معرفة السن التي لأحمد هذا حين مبايعة الناس له بالسلطة خلَفاً لأبيه ، إلاّ أننا نحتمل أنه كان دون الأربعين وقد لا يكون جاوز الثلاثين ، وعلى كل فهو في سن بين هاتين ذلك أن وفاته حدثت في سنة 1181هـ (1767 ـ 1768م) وهذا يعني أنه قد عمر طويلاً ومات في حوالي التسعين أو الثمانين وهذا أبعد ما يمكننا تقديره له ، هذا من ناحية ، ومن أخرى نجد أن لأحمد بن الناصر هذا ابناً (محمد) يافعاً في سنة 1731م، وبالتالي فلا يعقل أن تكون سنّه إذ ذاك دون الثلاثين.

وعلى كلٍّ ، ومهما كانت سنّه حين خَلَفَ أباه ، فقد وجد من الحيوية والعزم والتصميم ما حمله على منع الإتاوة عن طرابلس تحدياً سافراً لأحمد باشا القرمانلي ، ولم يقبل الباشا ، وهو من هو بهذا فسيّر حملته بقيادة أخيه شعبان على ما مرّ بنا في رواية كل من ابن غلبون وميكاكي معاً وعلى السواء. ولم تنجح هذه الحملة في إخضاع أحمد الناصر ولا في إرغامه على دفع الإتاوة ، بل يبدو وعلى العكس من ذلك أنها منيت بفشل ذريع أقنع أحمد باشا القرمانلي بالتخلي عن الرجل وعن فزان إلى حين ؛ إذ لم يعد إلى محاولته تلك للسيطرة على فزان وإخضاع سلطانها إلاّ بعد عشرين سنة من بداية

(1) ـ وكذلك لأنه في سنة 1716م (1128هـ) كان لايزال حيّاً ، وفي سنة 1719م (1132هـ) كان قد توفي وخلفه على فزان ابنه أحمد ، فوفاته على التحديد كانت بين هاتين وإنما قلنا بسنة 1718م اجتهاداً بنيناه على تصرفات الابن على ما سنذكره.

أمره ، أي حتى سنة 1731م استعادت السلطنة كامل تحررها خلالها ولم يدفع أحمد الناصر لخزانة القرمانلي أية إتاوة سنوية كأبيه.

ويسهب شارل فيرو في الحوليات في وصف الحملة وتفاصيلها فيقول ما نص ترجمته (وهي للوافي):

"وفي زحمة هذه الأحداث ، وقع في إقليم فزان من جديد ما عكّر صفو الهدوء الذي ظلّ مستتبّاً فيها خلال ثلاثة عشر عاماً . وقد تمثل ذلك الكدر في الثورة التي أعلنها أحمد ناصر ، فوجه إليه أحمد القرمانلي باشا حملة بقيادة ابنه محمد بك الثاني . وقد قام هذا الأمير بتوزيع جيشه في شتى مناطق فزان حيث قام بتخريب عدد من مراكزها المأهولة بالسكان ، بينما توجه هو بنفسه إلى مرزق لضرب الحصار حولها . وهناك انضمّت إليه تعزيزات يقودها أخوه محمود . ثم لم يمضِ طويل وقت حتى أرسل إليه والده الباشا ـ الذي كان يهمه كثيراً أن تُتوَّج تلك الحملة بنصر مبين ـ صهره خليل بن خليل آغا منطقة مسلاته على رأس قوات أخرى . وقد ترك الأميرال دوجي ـ تروان اثنين من المدفعيّين في خدمة طرابلس ، فكانت تلك مناسبة لهما لإرهاب أهالي المدينة المحاصرة بقذائفهما"(1).

---

(1) ـ يبدو هنا أن الأستاذ الوافي قد التبس عليه الأمر ـ ربما لخطأ الطباعة في النص الفرنسي ـ ما بين Bombar Dies وبين Bombards ، والأولى كما عرّب والثانية نوع من السفن الحربية المسلحة معروف ، ولذا علّق بقوله :"الواقع أنني وجدت غموضاً حول ما يقصده شارل فيرو بهذه الجملة..إلخ". ولو عرّب اللفظة بـ"قاصفتين Bombards" لاستقام المعنى ووضح ؛ إذ المعنى هنا بالخدمة القنصلية الفرنسية لا حكومة القرمانلي ومدينة طرابلس المحاصرة. (راجع الحادثة بتمامها في الحوليات وميكاكي في هذا الموضوع).

"ولم يكن في إمكان أحمد ناصر أن يتصدى لقوات جرارة كتلك ، فاضطر إلى التسليم . وعفا عنه محمد بك شريطة أن يقوم بدفع نفقات الحملة ومتبقيات ضريبة الخراج ، وبعد أن تم الاتفاق على تلك الشروط ، توجّه محمد بك عائداً إلى طرابلس ، حيث أوفد إلى والده قبله من ينبئه بتحقيق النصر ، وكان الباشا غاضباً منذ مدة طويلة لتكرر واستمرار ثورات أهالي فزان ؛ ولذا فقد صمم على الانتقام منهم على نحو يضمن له خضوعهم في المستقبل ، فأصدر إلى ابنه أمراً بالعودة من جديد إلى مرزق لاستئناف الحرب ضدها حتى يستسلم أحمد ناصر بدون قيد أو شرط ، وحذّره من العودة إليه في طرابلس ما لم يصطحب أحمد ناصر أسيراً معه ، والتزم الأمير بأوامر والده . وإذ رأى أحمد ناصر عدم جدوى مواصلة المقاومة ؛ فإنه سلم نفسه هو وابنه إلى معسكر محمد بك ، فاقتاده هذا الأخير إلى طرابلس . وكان الباشا يرغب في الحكم عليه بالإعدام ، غير أن ابنه الأمير تمكن من إقناعه بتخفيف العقوبة ، فدعا القرمانلي مجلس ديوانه للانعقاد ، حيث قام بعرض أحمد ناصر وابنه للبيع بالمزاد العلني كما لو كانا من الأرقّاء الأذلاّء ؛ فاشتراهما ابن الباشا بقطعتين حقيرتين من النحاس تعادلان بالعملة الفرنسية عشرة سنتيمات كانت هي الثمن الزهيد الذي رست به عليه عملية البيع".

"وبعد ذلك المشهد المهين ، قام الباشا بعتق أحمد ناصر ، وعاد فرد إليه جميع سلطاته السابقة ، وخلع عليه القفطان الفخري الذي يعني تقليده منصب عمالة فزان من جديد بدرجة بك ، وأعاده إلى

موطنه يحيط به جيش جرار يقوده رجب بن بيري الذي حُمِّل أوامر بهدم أسوار مرزق والتي لم يُعد بناؤها إلاّ بعد انقضاء زمن طويل على وفاة أحمد القرمانلي ، وبالتحديد ، في سنة 1775م"[1].

وقد ذكر رودولفو ميكاكي في كتابه عن الأسرة القرمانلية نفس الحادثة راجعاً فيها إلى غير شارل فيرو[2]. كما أوردها أيضاً الأب برنيا في كتابه عن طرابلس الذي عرّبه التليسي ، وليس بين ثلاثتها كبير اختلاف.

وهذا التصرف الغريب الشاذ من أحمد باشا القرمانلي يعكس لنا من طبيعة الرجل ومفاهيمه الكثير ، فهو لا يشعر بأنه من كرامة الأصل بنفس المرتبة التي عليها أحمد الناصر سليل أسرة مالكة لسلطنة فزان حتى قبل مقدم جده الأعلى كإنكشاري بسيط في عسكر الأتراك ، وبالتالي فإن عملية إصراره على أسر أحمد الناصر وابنه محمد وعرضهما كمسترقين وشراؤه لهما بثمن بخس ، ثم عتقهما من الرق ورد اعتبارهما إليهما مع كامل أبهة السلطان ، إنما أراد منها أولاً وأخيراً أن يزيل فارق المكانة ويزيح عن نفسه ضعة الأصل التي يحس بها في نفسه وحسب ، فهي عملية إذلال ومنع للتعالي عليه في سائر البلاد[3].

---

(1) ـ فيرو : الحوليات ، تعريب الوافي ، ص429 ـ 430.

(2) ـ Micacchi, R. : La Tripotania sotto il Dominio del Caramanli, p.79-80.
وهو عن مخطوط بمكتبة مالطة الوطنية رقمها 113 (راجع ص302 منه).

(3) ـ وفي هذا مصداق لقوله تعالى :﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾، وإبراز واضح لما تعنيه وتدل عليه.

ومن الطبيعي ، أن تنزع عن أحمد الناصر وعن ابنه لقب "السلطان"، وأن تحدد رتبته بـ:"البيّ" وهي دون رتبة الباشا التي يحملها هو وهي قصر عليه . ولكن الناس لم يروا في هذا غير عسف القرمانلي وجبروته ، ولهذا فقد استمروا على نعته بالسلطان هو ومن بعده ، كما أنه وابنه وحفيده حافظوا على هذه الصفة في داخل فزان ، ولم ينعتوا أنفسهم بالشيخ إلاّ حينما يكاتبون طرابلس(1).

ومهما يكن من هذا التعليل والتحليل للأمر فإننا ومن الناحية التاريخية الصرفة ، ومن حيث دستورية الوضع فإن ما حدث قد غيّر من وضع هذه الأسرة الدستوري ، بل ومن وضع ذات الإقليم فقدْ فَقَدَ ـ ومن الناحية العملية ـ استقلاله ، كما أن أحمد الناصر قد أصبح عتيق القرمانلي ، وبالتالي دون مرتبة من لم يفقد حريته على الإطلاق ، وهذا إنما يعني نهاية عهد أسرة "أولاد امحمد" كسلاطين لفزان ، وإن استمر أحمد الناصر ومن بعده يحكمون فزان لما يقرب من قرن آخر من الزمان.

وليست لدينا معلومات عن بقية عهد هذا الرجل باستثناء وفاته سنة 1181هـ (1767 ـ 1778م)، ومعنى هذا أن عهده قد طال وامتدّ لحوالي نصف قرن هلك أثناءه أحمد باشا القرمانلي ، وابنه محمد الذي خلفه ، وأصبح صاحب الأمر في طرابلس هو علي باشا القرمانلي ويمكننا أن نجزّي عهد أحمد الناصر هذا إلى فترتين : فترة أولى كان

---

(1)- Ettore Rossi : Storia di Tripolie dela Tripolitania ecc pag. 267

ومصدره في هذا ما أورده هورنيمان في رحلته.

فيها سيداً على فزان كبلد مستقل بذاته عن طرابلس لا يؤدي لحاكمها القرمانلي إتاوة ولا يطيع أمراً وقد امتدّت هذه من مبايعته سنة 1718م. أو حوالي ذلك إلى سنة 1732م أي لأربعة عشر عاماً . وفترة ثانية فقد فيها حريته الشخصية ولو معنوياً ؛ إذ أصبح عتيق القرمانلي وإن حكم فزان خلالها فكمجرد عامل لهذا عليها يحكمها باسمه ونيابة عنه ، والبلد لا حرية ولا شيء من الذاتية لها ولو مقابل الالتزام بالإتاوة السنوية ، وإنما تجبي ضرائبها ورسومها وأعشارها مباشرة بواسطة "بيّ النوبة"[1] الذي يعين سنوياً من طرابلس ، وقد امتدّت هذه الفترة من عهد أحمد الناصر خمساً وثلاثين سنة أخرى (1732 ـ 1767م).

• بقية سلاطين الأسرة:

وخَلَف أحمد الناصر ابنه الطاهر[2] في سنة 1181هـ، وكان الثاني عشر من أبناء الأسرة الذين تعاقبوا على حكم فزان ، والثاني

---

(1) ـ للنوبة في لهجة الشعب مدلولان : فهي الجوقة العسكرية والفرقة الموسيقية التي تتقدم الركب الرسمي للأمير ، وهي أيضاً : الدور الذي يعقب دوراً ، يعين زمناً لمن يتعاقبون على أمر يُكلّفون به . والأرجح أن يكون المراد ببيّ النوبة هنا هو ثاني المدلولين ، فالجباية دورتها سنوية ، والمعني على هذا هو أمير حملة الجباية لذلك العام وحسب ، وقد يكون هو ذاته أميرها في السنة أو السنوات التالية وقد لا يكون ويصبح أميراً أو بيّ النوبة في التي بعدها سواه.

(2) ـ وهو ذاته محمد الذي استرقّ وعتق مع أبيه أو هو أخ له أصغر منه (لا مادة بين أيدينا تساعدنا على التعيين) وإن كنا نميل إلى الفصل ما بين الشخصيتين واعتبار الطاهر غير محمد الذي ربما كان آنذاك قد مات.

بين من يعدون مجرد عمال يأتمرون بأن طرابلس . ويبدو أنه ولطول عهد الأب لم يلِ الأمر إلاّ وقد تقدمت السن هو الآخر به ، وعلى كل فهو لم يعمر طويلاً وقضى سنة 1187هـ (1773 ـ 1774م) وخلفه في حكم فزان ابنه أحمد الذي لا نعرف لعهده نهاية إلاّ أننا نجد حاكم البلد من ذات الأسرة في سنة 1204هـ (1789 ـ 1790م) هو محمد الشريف ابن أحمد وحفيد الطاهر ، وهو آخر من حكم فزان من "أولاد امحمد"، وكانت نهايته على يد المكني على ما سنعود إليه ، وذلك في سنة 1227هـ (1812 ـ 1813م).

وليست لدينا أية معلومات ـ في الوقت الحاضر ـ عن عهود هؤلاء الذين ذكرناهم سوى ما قدمناه ، ولعل مرد هذا إلى أنهم فقدوا أهميتهم السياسية وأصبحوا في سلطنتهم أقرب إلى شيخ القبيلة ذي النفوذ منهم إلى السلطان ، إلاّ أن الفارق هو أن سلطانهم (ولو اسمياً) يمتدّ على إقليم واسع تسكنه قبائل عدة وليس على قبيلة بذاتها وهو ما يقتصر عليه سلطان الشيخ القبلي.

أما نهاية هذه الأسرة من الناحية السياسية والسلطان فقد رواه النائب لنا على الشكل التالي :

"وفي هذه السنة [1227هـ] تسامح (الشيخ محمد الشريف) عامل (لواء فزان) عن إرسال الخراج وأولع بالغناء وانهمك في اللذات ومعاشرة المضحكين والصفاعين ، وأهمل الضبط والربط فغضب يوسف باشا لذلك ، ووجه له القائد (محمد المكني) في العساكر وقدم (مرزق) وعسكر بخارجها مورياً بإراحة العساكر والسفر إلى بلد (برنو)

وخدع بذلك عن قصده فقدم إليه (ابن أخ العامل) وأوضح إليه ما ألم بالأهالي من الضرر وسوء الحال من تصرف عمه ، فأغراه على قتله ووعده بأن يوليه مكانه فاشرأب لذلك ووثب على عمه وقتله وأخبر القائد ، فدخل البلد بعسكره ، وتبوأها من غير ممانع وحل قصر الحكومة وجمع العلماء والأعيان ، ثم أحضر ابن أخ العامل واعترف لديهم بقتل عمه فنقموا عليه والتمسوا من القائد معاقبته وجعله مثلاً للسامع وعبرة للمتوسم فقتله . وتمكن المكني من اللواء وانقادوا إليه وأتاه الأمر عفواً صفواً ونال أربه بلا مشقة"[1].

رواية فيها من تبرير الحملة المغرض من المتحامل ما تعودناه من هذا المصدر الذي عبثت به يد الرقيب وتحكمت في أسلوب العرض منه استبدادية السلطان عبدالحميد ، إلاّ أنها ومع هذا تقدم لنا الواقع التاريخي المتعلق بنهاية عهد أسرة "أولاد امحمد" من سلاطين فزان.

---

(1) ـ أحمد النائب : المنهل العذب ، ص318 ـ 319.

ملحق

قراقوش الأرمني

أعماله وأثره في تاريخ فزان

• مدخل :

شرف الدين قراقوش ليس إلاّ عاصفة هوجاء هبّت من الشرق على الغرب فحلّت بغربي ليبيا حاملة معها من مؤثرات الصراع الدائر في مصر وما شرقها ما قذفت به هذا الجانب فاقتلعت جذور ما اعترضها من أنظمة سياسية (حكومة آل خطاب)، وأذكت به اجتماعياً صراعات دائرة بين العرب والبربر ، فأدى هذا وبحكم الواقع السائد قبله إلى المزيد من الصراع المستفحل بين الريف والمدينة أو البادية والحضر. ولأن هذه الظواهر في تشابكها وتداخلها وتعقيدها إذا ما اضطرمت وزاد اشتعالها لا تكفي فيها قدرات محدودة كالتي لقراقوش ، فقد عصفت به هو ذاته ، وكانت سبباً في نهايته المأساوية على الشكل الذي سنرويه.

وشرف الدين هذا رأى فيه راوية الخبر من الغرب (التجاني) مغامراً آبقاً من سيده متمرداً على قائده فرّ بطائفة من الجند فدخل بهم المغرب ناشداً حظه كسواه من مماليك ذلك العصر . أما مؤرخو المشرق (المقريزي ، ابن واصل ، القلقشندي) فإنهم رأوا فيه قائد حملة مسيَّرة بأمر صلاح الدين ، وبالطبع فإن ما ندركه من الرواية المشرقية

غير ما نفهمه من الرواية المغربية ؛ ذلك أن هذه لا تجعل لحملة قراقوش من غاية غير طموحات ومطامع داعبته وتحكّمت فيه ، ثم لا شيء وراء ذلك ، أما الأخرى فهي تنفي صفات الرغبات الشخصية والمطامع الذاتية لقراقوش وتجعل منه مجرد قائد لحملة عسكرية سيرت لتحقيق أهداف محددة وغايات مقصودة . وهذا ما يجعل للبحث وجهاً ووجهةً شرقية أو غربية بحسب الراوية له من حيث الميول والاتجاهات.

ولما كنا في هذا البحث لسنا بمشارقة ولا بمغاربة ، فقد رأينا أن نبحث الاتجاهين بمنطق الواقع التاريخي ؛ نشداناً للحقيقة في ضوء الإطار العام للصراع السياسي ـ العسكري في ذلك العصر . وهذا يقتضي منا أن لا نقصر البحث على فزان وحدها ، ولا في نطاق واقع ليبيا وحسب من الشمال الأفريقي ، وما هذا منا لمجرد رغبة في مزيد الاطلاع ، وإنما لأن تاريخ فزان يتخذ بها وبما نتج عنها أبعاداً جديدة في التاريخ .

• المسرح الدولي العام :

وجد قراقوش وتحرك في عصر أقل ما يوصف به أنه قلق مضطرب ، متداخلة أحداثه ، فالقرون الثلاثة (قرنه والسابق له والآخر الذي تلاه) كانت في منتهى حالات الضعف والتفكك ، لقد فقد العرب المسلمون سيادتهم البحرية ، وخرجت من أيديهم أقاليم واسعة من بلاد الأندلس ، وفقدوا هيمنتهم على كورسكا وسردانية ،

ولم تعد لهم سيطرة على صقلية ، ومالطة ، وكريت ، وقبرص ، وغيرها . بل والعديد من موانئ الشام ، ولبنان ، وفلسطين ، ومصر ، والمغرب : استولى عليها الصليبيون الذين وجدوا ـ وللأسف الشديد ـ من مدّ لهم يده محالفاً ضد جاره وخصمه من بني العرب والبربر وأمة المسلمين.

والخلافة العباسية لا وجود فعلي لها ، فالخليفة مجرد صورة أو دمية أو يكاد يكونه ، لا حول له ولا طول . والخلافة الفاطمية تحتضر في انتظار من يوجه لها دفعة هينة أخيرة تلفظ معها الأنفاس ، والعرب في الحاضرة لا كيان لهم فهم مسحوقون ، والعرب في البادية ـ ممثلين بقبائل ـ أفرادها غلاظ أجلاف ، وهم قد دفع بهم في تغريبتهم الكبرى ضد دولة بني زيري الصنهاجية ، وهم قد حققوا وجودهم وفرضوا ذاتهم بأقاليم الشمال الإفريقي . والبربر لم تعد لهم تلك الوحدة الشاملة ، فهم قد كوّنوا دولاً ذات نعرات عصبية واحدة إثر أخرى ، وهي في تنافس وصراع ذهب بقوة الجميع[1].

والعدو الأوروبي قد استشرى وزاد في جبروته ، فهو وعلى امتداد شواطئ البحر المتوسط إما مهدد بأساطيله وإما محتل للمرافئ في

---

(1) ـ كانت دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى (فاس) أول هذه الدول ذات اللحمة والسدى البربري بظاهر ووجه عربي ذات كيان ، وكانت كتامة ركيزة الدعوة الفاطمية ولم تكن دولة بني زيري إلاّ صنهاجية ، وتلتها دولة المرابطين فدولة الموحدين وجميعها بربرية ، وكل واحدة كانت على أنقاض سابقتها وكل منها قد أصبحت قبلياً لمن تلتها معادية ، وهكذا فقدت وحدة البربر الذاتية ولم يبقَ منها غير الإجماع على النفور من العرب الوافدين هجرةً ونزوحاً (عرب التغريبة).

المدن والجزر التي كانت إسلامية ، وعلى رغم ما هم عليه من خلاف وتنافس في داخل قارتهم نجدهم وفيما يتعلق بحملاتهم الصليبية متفقون متحدون ضد الإسلام والمسلمين في المشرق العربي على الأقل.

في هذا الجو ، وعلى هذا المسرح طالعنا الأرمني المسلم قراقوش ، ظهر فجأة وبلا مقدمات ، دخل القطر الليبي من الجنوب (سيوه ، أوجله، زلة ، زويلة) ومن ثم انحدر شمالاً ووجهته طرابلس ، فاخترق مجالات هوارة ونفوسة ، واستعان بالعرب الأعراب على البربر فاستولى على مدنهم وقراهم وحاصر طرابلس حتى استسلمت له فاتخذها قاعدةً له في التوسع غرباً إلى حيث أمكنه.

ولن نزج بأنفسنا والقارئ معنا في دوامة هذا الإعصار الذي اقتلع كل شيء على وجه التقريب ، فتاريخ الدولة العباسية والفاطمية وتاريخ دول المغرب أو الشمال الإفريقي وصراعاتها ضد بعضها البعض ، وضد الروم أو تحالفها معهم معروف ومدوّنة فصوله في التاريخ ، وما من حاجة بنا إلى تقديم شيء منه ونحن مقصرون البحث على فزان وحدها من سائر تاريخ القطر الليبي ، إلاّ أن هذا لا يمنع من الإشارات العابرة إلى شيء من ذلك كلما تطلب البحث هذا واقتضاه.

• التجّاني وقراقوش وفزان :

يضعنا رواة التاريخ المغاربة والمشارقة أمام روايتين تقدّم كل منهما لنا قراقوش شخصية نقيض الأخرى ؛ إذ تجعله واحدة مملوكاً

متمرداً على سيده (تقي الدين) وآمره (صلاح الدين) يخرج عليهما في طائفة من العسكر، يغامر بهم ناشداً حظه ساعياً وراء أحلامه وأطماعه الذاتية محاولاً بناء دولة وإقامة حكم خاص به وخالص له ؛ وتجعله الأخرى قائداً ملتزماً طائعاً لسيديه يأتمر بأمرهما ويستولي باسمهما وإليهما يكتب بفتوحاته ويبلغ عن انتصاراته أولاً بأول كأي قائد تابع مطيع لهما ، في المراحل الأولى على الأقل.

فأي الروايتين أصدق؟ وأيهما نرجح؟ وأيهما نعتمد؟ مادام القبول بها معاً وفي نفس الآن مستحيل؟

أقرب الراوين لحملة قراقوش على الواحات الليبية من المغاربة التجاني في رحلته ، وروايته هي الأشهر والأكثر تداولاً وتردداً بين المؤرخين من بعده ، ولكن وإلى جانبها وفيما يتعلق منها بأوجلة والجنوب الليبي على الأقل ، نجد أخرى عند المقريزي في السلوك ، وثالثة في مفرج الكروب لابن واصل الحموي ، وغيرهما رابعة عند القلقشندي في صبح الأعشى ، وجميعها ومن حيث زمن الراوي متأخر عنها إلاّ أنها ومن حيث المحتوى والموضوع بأشخاصه ألصق ، فهي روايات موثقة (عند رواتها) في رسائل من نور الدين زنكي ومن صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة العباسي .

وبين هذه الروايات ورواية التجاني خلاف واختلاف يستوجب الوقوف عنده والتدبر له ، وبأكثر مما فعل الدكتور إحسان عباس[1]

(1) - راجع ذلك في من كتابه : تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري ، دار ليبيا ، بنغازي ، ط1 ، 1967م، ص160 - 161.

ذلك أن إدراك جوهر ما بينها من فروق النص والتوقيت قاصر على الجانب الذي كان المؤرخ من هؤلاء يعنى به ويبحث فيه من جهة ، ومن أخرى متأثر بميول الكاتب وانحيازه الجهوي فيما قدم وكتب ، وبالتالي موقفه من قراقوش.

والتجاني صاحب الرحلة حفصي الميول والاهتمام ، مغربي التحيز والانحياز ، ولم يكن كذلك لا المقريزي ولا ابن واصل الحموي، وبالتالي فإن الذي يهم التجاني من أخبار قراقوش هو زويلة وما بعدها ، فهو المغرب الذي يهتم به ، أما الآخران فإن ما يهمهما من أمر قراقوش هو ما يتعلق بزويلة وما قبلها باعتبار هذه بلاد واقعة في حوز مصر أو على حدود مصر ، وهذا وذاك واضح في الذي قدّم عنه.

وليس فيما قدّم التجاني عن قراقوش ما يعكس بعض مرضاته عنه وعن أعماله بل العكس ، ولا يتوقع منه غير هذا ، فالرجل مشرقي ، ولا عن ابن غانية الذي عاصره وارتبط في بعض مغامرته به ، فالرجل من العرب الأعراب ، وفوق هذا من سراسب دولة المرابطين خصوم الموحدين والحفصيين ، والتجاني شديد التحامل على الأعراب والمرابطين ، وبالتالي فهو ظاهر التحيز لأفريقيته وللنظام الحفصي المعادي لكلا الرجلين غير الراضي عنهما على الأقل ، وبالطبع فإن المقريزي وابن واصل الحموي معاً كانا على عكس هذا الاتجاه ، وفيما دوناه فميولهما كانت أيوبية ومع صلاح الدين.

التجاني يشكك في صدق إخلاص قراقوش لسيده نور الدين ولقائده صلاح الدين ، على الرغم من عدم تقديمه دليلاً مقنعاً يدعم

هذا الشك عنده أو في روايته[1] عنهما سوى ما قد يكون انتهى إليه استنتاجاً من مجريات الأحداث وتصرفات قراقوش في المرحلة المتأخرة من مغامرته التي امتدّت طويلاً وانتهت بحياته . أو بمعنى آخر : بنى شكّه على الدوافع المستقاة من النتائج ، وهذا عكس المنطق بالتأكيد ، ذلك أن النتائج تبنى على الأسباب أما النتائج فقد تكون لها أسباب أخرى هي وفي حد ذاتها نتائج لما سبقها أو تلاها معترضاً من أسباب أخرى كما في حالة قراقوش.

والتجاني لا يمتد بحديثه إلى برقة بل يقصره على طرابلس ، فإن شمل حديثه برقة أو جانباً منها جاء به عرضاً ولم يوله الكثير من اهتمامه وعنايته ، وهو وفيما يتعلق بأنباء قراقوش يعتبر برقة تبدأ من عند العقبة فما غربها ، ولهذا كانت روايته عن قراقوش وزميله إبراهيم بن فرانكين :" ولما تجاوزوا العقبة " وهو يعني بهذا "ولما تركوا مصر ودخلوا برقة". ولكن خطأ الرواية هنا أنها لم تفرّق بين الواقع الجغرافي والواقع السياسي آنذاك ؛ ذلك أن سلطان مصر السياسي كان يمتد على سائر برقة ، بحيث إن أوجلة كانت منها ، أما زلة فقد تكون خارجة عنها وكبعض فزان وسلطة آل خطاب ، وهذا يعني أن افتراق الجيشين والقائدين بعد اجتياز العقبة لا يعني حدوثه بعد ترك مصر ونفوذ حاكمها السياسي والعسكري ، وإنما يعني افتراق الدرب

---

(1) - لا نجرؤ على القول بأن التجاني قد تعمد التجريح أو كان مصدر التشكيك في ولاء قراقوش لتقي الدين ولصلاح الدين ، ولكن - وفيما نحتمل - كان مردداً لرواية المجتمع الساخط الناقم عليه وحسب.

من هناك إلى شمالي ساحلي وجنوبي صحراوي إذ من المعلوم آنذاك كما هو قبله وبعده وحتى الآن ، فإن الدرب إلى سيوة يبدأ من مرسى مطروح (باراتونيوم القديمة) كما يعني أن العقبة المجتازة هي الصغرى (عند رأس الكنايس) لا الكبرى (السلوم) وهذا يدل إن دل على شيء ليس على افتراق مبني على مجرد رغبة القائدين الفارين وإنما على أن السير كان مبنياً على خطة تطويق مدروسة تعني استيلاء على الإقليم من الشمال بإبراهيم بن فرانكين ومن الجنوب بشرف الدين قراقوش.

ولا يذكر التجاني غير حملة واحدة تم الاستيلاء فيها على سنترية وأوجلة وزلة وزويلة ، ويحدد لها تاريخاً سنة 568هـ[1](1173م)، إلاّ أننا نجد نور الدين زنكي يعلم الخليفة العباسي باستيلاء عساكر حملته على مصر بالاستيلاء على برقة مع مصر ، وبلغوا حدودها المشتركة مع المغرب ، ونجد صلاح الدين يبعث إلى الخليفة الناصر لدين الله (العباسي) يعلمه بتسيير حملة استولت على برقة وطرابلس حتى آخر حدودها آنذاك مع أفريقية ، وفيها حديث عما يشبه الحرب الطويلة المدى والتي يرسل فيها العسكر فوجاً إثر فوج ، فهي سرايا تتابعت لا حملة واحدة قام بها مغامر ينشد حظّاً وحسب ، فإذا أضفنا إلى هذا ما ذكره القلقشندي من أن قراقوش كانت له على أوجلة

---

(1) ـ التجاني : الرحلة ، ص112 ، وفي صفحة 243 من نفس الطبعة جاءت على أنها 586 ، وواضح أنها خطأ وقعت فيه الستة حيث الثمانية ، وإلاّ فإنه أشار إلى ظهير حمل توقيع قراقوش في طرابلس وأُرِّخ سنة 579هـ . فتدبر الموضوع.

حملة أولى فرض على صاحبها مبالغ من المال وعودة إليها واحتلال لها وفتك بسبعمائة من رجالها حين انقلبت على صاحبها وقتلته على ما سنعود له ، اتضحت الصورة فأدركنا أن التجاني كان يجمل في الرواية ويوجز قصد الاختصار أو رغبة في عدم ذكر التفاصيل ، وإن احتلال قراقوش لزويلة وقضاءه على آخر ملوك بني خطاب لم يكن سهلاً ولا سريعاً كما تقدمه لنا روايته.

• الأيوبيون في ليبيا :

هذا مذهب لم يسبق لأحد من المؤرخين لا قديماً ولا حديثاً أن ذهبه وقال به ، وإذا كان أحد قد لامسه فعن طريق قراقوش المظفري ـ الناصري ، وعلى أساس المغامرة وحسب ، وهذا غير ما نصل إليه نحن باستقراء الروايات الدائرة حول هذا القراقوش اللغز المحير في تاريخ مصر والمغرب الأدنى معاً وعلى السواء ، وهذا اتجاه يقتضي منا أن نلتفت إلى صلاح الدين الأيوبي وإلى نور الدين زنكي وإلى الدولة الفاطمية التي أطاح بها إلى جانب دولة بني خطاب الإباضية وإلى العرب (الأعراب) وإلى البربر والزنوج ولا نقصر اهتمامنا على قراقوش وحملته وحسب ؛ إذ سنرى أن هذا ليس إلاّ أداة أسند لها دورها فقامت به وكانت بعد ذلك عبئاً على النظام الأيوبي فتخلص منها (بالإهمال؟).

هذه المرحلة ـ وكما أسلفنا ـ مرحلة تاريخية قلقة بالغة التشابك والتداخل والتعقيد ، والإلمام بما حدث فيها يقتضي الإحاطة

بالتيارات المتصارعة فيما بينها وعلى برقة وطرابلس وفزان وفي كل من هذه المناطق التاريخية الثلاث أنظمة سياسية ضعيفة هزيلة لا بقاء لها بغير التحالف مع غيرها نشداناً للعون والنصير ، ولما كانت مصر هي الأقرب إلى برقة ، وإفريقية (تونس) هي الأقرب إلى طرابلس وأقاليم ما خلف الصحراء (حيث كانم ووادي) هي الأقرب إلى فزان والجنوب البرقي بوجه عام فإن هذه الأقطار المتاخمة للأقاليم الليبية الثلاثة وبحكم رعايتها وحمايتها أو على الأصح هيمنتها عليها في حالات ضعفها تفرض على الباحث في تاريخ ليبيا آنذاك أن لا يهملها أو يتغاضى عنها جرياً وراء إبراز تاريخها الإقليمي كشيء ومستقل.

من هنا ، وانطلاقاً من هذا فإننا لن نقف بالبحث عن دور قراقوش الذي لعبه في ليبيا وفي الجنوبي منه على الخصوص عند الرجل وما جاء في التاريخ عنه كما فعل سوانا سعياً وراء الإلمام والوضوح الذي ينير لنا مدى أثره كظاهرة ، وتأثيره كإعصار في هذا التاريخ ، ولكي نصل إلى هذه الغاية نجد لزاماً علينا أن نحاول ترتيب الحوادث (كورنولوجياً) قدر الاستطاعة استقراء لها ومن خلال الربط ما بين المتداخل المتشابك من الواقع التاريخي على الأقل كما يتجلى لنا ونراه.

ولكن وقبل هذا نجد أن علينا أن نفرق ما بين شخصيتين اشتهرت كلتاهما في التاريخ باسم قراقوش هما بهاء الدين قراقوش عينه صلاح الدين مؤقتاً للخلافة (ناظر الخاصة؟) حينما قرر التضييق على الخليفة الفاطمي ، وشرف الدين قراقوش قائد فرقة

الجند الأيوبية الذي دخل المغرب غازياً وهو موضوع بحثنا الآن ، وبالتالي فإننا لا نعلم أي الرجلين شوهت شخصيته الأقاويل وأظهرته على الشكل المهزوز الذي قرن قراقوش به في التراث الفولكلوري المصري، ولا ينفي هذا احتمال أن يكون هناك قراقوش ثالث بين الاثنين هو ما تُنسب إليه تلك التصرفات.

وأول نص نستند إليه في حملات قراقوش رسالة أوردها ابن واصل الحموي في مفرج الكروب (235/1) منسوبة إلى نور الدين محمود زنكي وموجهة منه إلى الخليفة العباسي (المستضيء بالله) وفيها يقول :"وكذلك استولوا عساكر مصر أيضاً على برقة وحصونها ، وتحكموا في محكم معاقلها وحصونها حتى بلغوا إلى حدود المغرب فظفروا من السؤال بعنقاء مغرب".

فنور الدين محمود زنكي هنا هو من يُعلم الخليفة العباسي استيلاء عساكره الموجهين إلى مصر على برقة في نفس الوقت الذي تم لهم فيه الاستيلاء على مصر ، ونحن نعلم من مصادر أخرى عديدة أن أسد الدين شيركوه قد دخل القاهرة على رأس عساكر نور الدين زنكي يوم 7 ربيع الثاني سنة 564هـ (8 يناير 1959م)، فهل تم لعسكر نور الدين هذا الاستيلاء على برقة سنة 564هـ(؟) وهو الأول وليس الوحيد ، وقد جاء بالتبعية بمعنى أن برقة كانت كعسقلان آنذاك جناح مصر الغربي ، فالاستيلاء عليها استكمال للسيطرة على مصر.

ولا نعتقد أن هذا الاستيلاء قد تم بالعنف ، فليس في أسلوب الرواية ما يوحي بذلك أو ينم عليه ، ولعله لا يعدو أن يكون نشراً

للقوات الشامية غايته فرض النظام واحترام السلطان بلا عنف وبلا إكراه ؛ فشيركوه قد عين وزيراً للخليفة الفاطمي بإرادته ولم يفرض ـ ظاهرياً على الأقل ـ عليه بدليل أن الدعوة على المنابر كانت لنور الدين من بعد الخليفة الفاطمي ، وبدليل أن صلاح الدين الذي خلفه في منصب الوزارة الفاطمية قد عينه لها وكلفه بها الخليفة الفاطمي على الرغم من أن نور الدين قد نصبه فكان عمه المتوفى قائداً عاماً لجيوش دمشق.

إن الوضع في ليبيا لم يتغير كثيراً عما كان عليه : إقليم طرابلس واقع تحت حماية الموحدين ، وفزان لا تزال كما كانت مملكة سلاطين أسرة بني خطاب الهوارية الإباضية ، وبرقة معدودة من مصر وإنْ حكمها وتمكّن منها الأعراب من بني هلال وسليم ، مع أن الوزير والقيادات العسكرية قد أصبحت سنية في مصر وفي برقة إلاَّ أن رجال الإدارة بها هم كما كانوا من أتباع المذهب الفاطمي ، أو أن هذا ما يُفترض فيهم فالنظام شيعي وبيعة الشيعة فيها وفي مصر ، أما القواعد الشعبية فإن المتمكن منها وفي سائر الأقاليم الثلاثة هو الجهل والبداوة إذ لا علم ولا حضارة.

• صلاح الدين بين الدين والقومية:

أقل ما يمكننا به وصف صلاح الدين أنه رجل دولة سبق عصره بقرون ، حيث أدرك أن شحنة الدين العصبية في الشعوب قد فقدت مفعولها وأن شحنة التعصب القومي قد عادت لتحل محلها في

مجتمعات عصره ، لقد انتبه إلى أن المسيحية كالإسلام لم تعودا في الواقع غير ذريعة واهية ، فالقائد الصليبي يحالف القائد المسلم ضد خصمه من نفس الدين وإن القائد المسلم يفعل الشيء ذاته ولذات الهدف والغاية.

ورأى أن القبطي المصري يقف مع المسلم المصري مناصراً له ، متحالفاً معه ضد من غزا بلاده (مصر) من المسيحيين ، ورأى القائد المسلم الذي يمد يده إلى القائد المسيحي ناشداً نصرته وعونه ضد آخر من بني جنسه ودينه ممقوت مبغوض من قاعدته وجنده . في أغلب الحالات مخذول خذلان من لجأ إلى تجنيد المرتزقة من غير مواطنيه.

أدرك صلاح الدين الأيوبي مبكراً أن العرق والقومية أشد ربطاً وترابطاً في المجتمع - أي مجتمع - من الدين والتعصب الديني في صراعات تلك الأيام ، وأدرك أن العروبة هي القاعدة الشعبية العريضة وأنها مدده في تكوين أي عسكر أو جيش ، فاتجه إلى هذه القومية واعتمد عليها ولم يعد يحفل بالدين ، أو على الأصح أدرك أن السنة لا التشيع في مصر هم الركيزة فانحاز لهم ولكن دونما تعصب لهم على الأقباط ؛ وأدرك أن الخلافة الفاطمية لم يعد لها من قوة ولا من نفوذ لارتكازها على الجنود الزنوج المرتزقة وهم غير مصريين ، وأنها رغم تحولها من الغرب إلى الشرق لم تستطع التخلص كلياً من كتامة والعنصر البربري ، فظلت المناصب العليا وذات الخطر في النظام في يد البربر (واليهود؟)، بينما أبعد عنها المصري اللهم إلاَّ من ذلك الصنف المتملق الوصولي الذي لا إحساس قومي له وعلى معول في الأزمات

عليه.

ويطول بنا الحديث وقد يتشعب إذا ما نحن أوغلنا في تفصيلات هذا الأمر وتتبعنا هنا بموقفه في مصر من الزنوج ومن البربر، فهما ما يتصل ببحثنا في تاريخ فزان آنذاك.

على إثر اكتشاف مؤامرة على صلاح الدين دبرها مؤتمن القصر "جناح" كبير الزنوج به (عددهم 50 ألفاً فيما يذكر المقريزي، في القصر منهم 28 ألفاً) واغتياله، ثار الزنوج بالقاهرة فتصدى لهم عسكر الأيوبي ودامت المعارك يومين، وانتهت بهزيمة الزنج وملاحقتهم حتى الصعيد. وبهذا تخلّص صلاح الدين من العنصر الزنجي، ومن كبار المسؤولين من البربر وسواهم في القصر وحيل بينهم والخليفة الفاطمي الذي ألزم قصره كالسجين.

ويذكر التاريخ ثورة الأمير السوداني كنز الدولة والي أسوان وعباس بن شادي والي قوص، وكانا من الموالين للفاطميين، فأُخمدت الثورة في الدم، وتلتها حركات أخرى لبضع سنين سادت في الجنوب.

ويذكر التاريخ أن صلاح الدين سيّر "أخاه توران شاه إلى الشواطئ الأفريقية فاستولى على سواحل طرابلس وتونس حتى مدينة قابس التي أعطته موقعاً ستراتيجياً دفاعياً هاماً"[1]. ونعلم نحن من مصادر أخرى أن طرابلس وقابساً آنذاك كانتا حدود مجالات هوارة ونفوسة الإباضيتين من الناحية القبلية والعقائدية، وإن كانتا

---

(1) - قدري قلعجي : صلاح الدين الأيوبي، دار الكاتب العربي، 1966، ص220.

سياسياً مجالين للصراع الأيوبي الموحدي فكلتاهما تحاول كدولة استقطاب العناصر العربية خاصة لصفه فقد كانوا آنذاك هم القوة الغالبة وكلتاهما بل والدول الأخرى ذات المطامع والطموحات في المنطقة كالنورمان وآل خطاب ودولة كانم تحاول أن تجذب العرب للصف الذي هي فيه.

وكان موقف شيوخ هلال والأثبج وعدي ورياح وزغب وغيرهم ابتداءً من أرض طرابلس حتى أقصى ما بلغوه من حدود الاستيطان في المغرب ، فإنهم حين وجدوا أن عبدالمؤمن قد استولى على بلاد بني حماد وأن يقاتلوهم ويوقفوه عند حدوده ، وتشاور محرز بن زياد وحبارة بن كامل وحسن بن ثعلب وعيسى بن حسن وغيرهم من الشيوخ ، واجتمع أمرهم على أن دولة الموحدين هي العدو الكبير الذي لابد لهم من مواجهته بحزم ، وتحالفوا على التعاون ، وأن لا يخون بعضهم بعضاً ، وقرروا أن يجمعوا في المعركة حريمهم وأهاليهم لتكون الحرب استيئاساً.

وكان ملك صقلية من وراء هذه الحركة يحرضهم ويستنفرهم ، بل إنه عرض عليهم أن يرسل لهم خمسة آلاف لمعونتهم شرط أن يرسلوا إليه رهائن في مقابل ذلك ، سواء أكانت العقبة في قبول هذا العرض هي الصعوبة في تقديم الرهائن أو في الاطمئنان إلى نوايا رجار الصقلي في المستقبل ، فإنهم أعلنوا شكرهم له وعدم قبولهم

للمعونة معللين ذلك بأنهم لا يستعينون بغير المسلمين[1] .

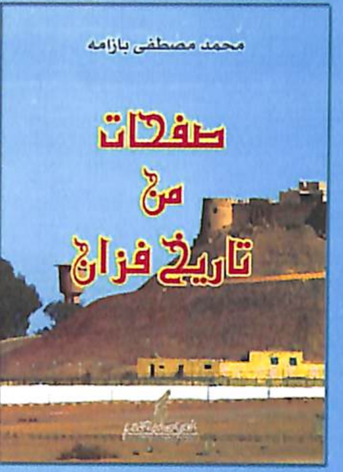
وبلغت عبدالمؤمن أخبار هذا الحشد الهائل ، فأرسل جيشاً فيه ما يزيد على ثلاثين ألف فارس بقيادة عبدالله بن عمر الهنتاتي وسعد الله بن يحيى ، وكانت خطة القائدين الموحديين نظراً لكثرة العربان : هي جرهم إلى القتال في ميدان مليء بالعقبات ولذلك ظلاّ يطبقان خطة الانسحاب حتى امتنعا عند سطيف في منطقة جبلية وعرة (سنة 548هـ)، وكان العربان أثناء تقدمهم قد اختل نظامهم وركنوا إلى النزول على غير استعداد للمعركة ، فقام الجيش الموحدي بمباغتتهم وهم على تلك الحال ، وكانت الخطة متقنة بارعة كفلت للموحدين النصر ، وانهزم العربان مخلفين ما كانوا حشدوه معهم من نساء وأولاد ونِعَم . أما المال فقد اقتسمه الموحدون ، وأما النساء والأولاد فقد أمر عبدالمؤمن بصيانتهم.

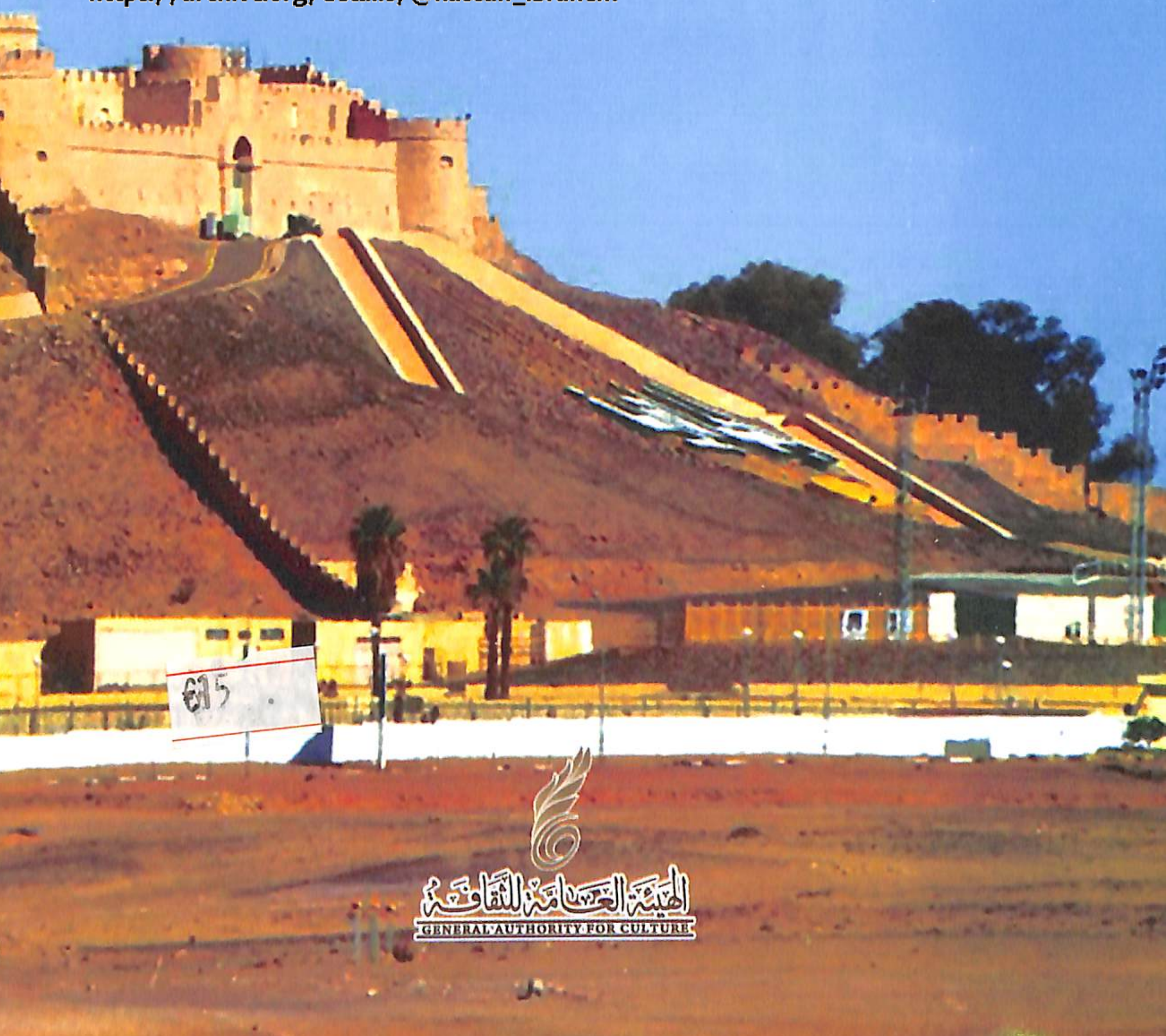
(1) ـ في هذا دليل موثق تاريخياً على محاولة الحاكم النورماني استغلال العرب كقوة ضاربة في صفه يحالفها ويشترك معها ضد دولة من دول الشمال الإفريقي .

الفهرس

صُفَّ هذا الكتاب بطريق الجمع الضوئي

في مكتب الشحومي (الصابري ـ بنغازي)





الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE